

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة هود

عليه السلام

لفضيله
الدكتور محمد السيد طنطاوي
الأستاذ بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

﴿ ربنا تقبل منا ، إنك أنت السميع العليم ﴾

[الجزء الثاني عشر]

تعريف بسورة هود - عليه السلام -

١ - سورة هود - عليه السلام - هي السورة الحادية عشرة في ترتيب
الصحف ، فقد سبقتها في هذا الترتيب سورة: الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران
والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، ويونس .
أما ترتيبها في النزول ، فهي السورة الثانية والخمسون ، وكان نزولها بما
سورة يونس (١) .

٢ - وعدد آياتها : ثلاث وعشرون ومائة آية .

٣ - وقد سماها النبي - صلى الله عليه وسلم - بسورة هود ، فقد روى
الترمذي وابن عباس قال : قال أبو بكر : يا رسول الله قد شئت ! قال : « شئتو
» هود ، و « الواقعة » ، « المرسلات » ، و « عم يفسألون » ، و « إذا الشمس
كورت » .

وفي رواية : شيتى هود وأخوانها .

قال القرطبي بعد أن ساق بعض الأحاديث في فضل هذه السورة ، ففي تلاوة
هذه السور ما يكشف لقلوب العارفين سلطانة وبطشة فتذهل منه النفوس
وتشيب منه الروس (٢) .

٤ - من نزل سورة هود ؟

جمهور العلماء على أن سورة هود جميعها مكية ، وقيل هي مكية إلا ثلاث
آيات منها : وهي قوله - تعالى - « فلعنك تارك بعض ما يوحى إليك
وضائق به صدرك ... » الآية ١٢ .

(١) راجع كتاب « البرهان في علوم القرآن » للإمام الزركشي ج ١ ص ٩٣ ،
طبعة عيسى الحلبي تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم .

(٢) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٢ طبعة دار الكتاب العربي بالقاهرة

وقوله — تعالى — « أفن كان على بيضة من ربه وبتلوه شاهد منه، الآية ٩٧ »
وقوله تعالى : — « وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل، الآية ١١٤ »

والذي نرجحه أن السورة كلها مكية ، وسنرى عند تفسيرنا لهذه الآيات
لقد قيل بأنها مدنية ، ما يشهد لصحة ما ذهبنا إليه .
كذلك نرجح أن هذه السورة السكرية ، كان نزولها في الفترة التي أعقبت
حادث الإسراء والمعراج ، ذلك لأن نزولها — كما سبق أن أشرنا — كان بعد
سورة يونس ، وسورة يونس كان نزولها بعد سورة الإسراء ، التي افتتحت
بالحديث عنه .

وهذه الفترة التي كانت قبيل حادث الإسراء والمعراج والتي أعقبته، تعتبر
من أشق الفترات وأحرجها وأصعبها في تاريخ الدعوة الإسلامية .

ففي هذه الفترة مات أبو طالب عم النبي — صلى الله عليه وسلم — والمدافع
عنه ، ومات كذلك السيدة خديجة — رضى الله عنها — التي كانت نعم المواسي
له عما يصيبه من أذى ... ففقد الرسول — صلى الله عليه وسلم — بموتهما
نصيرين عزيزين ، كانت لهما مكانتهما العظيمة في نفسه ، وتعرض — صلى الله
عليه وسلم — في هذه الفترة للألوان من الأذى والاضطهاد فاقت كل ما سبقها
وبلعت الحرب المعلنة من المشركين عليه وعلى دعوته ، أقصى وأقصى مداها .

قال ابن إسحاق خلال حديثه عن هذه الفترة : ثم إن خديجة بنت خويلد
وأبو طالب هلكا في عام واحد ، فتتابعت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
المصائب بملك خديجة - وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكوا إليها -
وبملك عمه أبي طالب - وكان له عضدا وحرزا في أمره ، ومنعة وفاصرا على
أمره - ، وذلك قبل مهاجرة إلى المدينة بثلاث سنين .

فلما هلك أبو طالب قالت قريش من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من
الأذى ، ما لم تكن تطمع فيه في حياة أبي طالب ، حتى اعترضه سفيه من
سفهاء قريش ، فاش على رأسه ترايا . . .

ثم قال ابن إسحاق : فحدثني هشام بن عروة ، عن أبيه عروة بن الزبير قال لما نثر ذلك السفينة على رأس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذلك التراب دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيته ، والتراب على رأسه ، فقامت عليه إحدى بنياته ، فجعلت تغسل عنه التراب ، وهي تبكي ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول لها : لا تبكي يا بنية ، فإن الله مانع أباك .

قال : ويقول بين ذلك : وما قالت مني قریش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب (١) .

وسنرى عند استعراضنا للسورة الكريمة ، أنها صورت هذه الفترة أكل تصوير .

٥ - مناسبتها لسورة يونس - عليه السلام - :

قال الألوسي - رحمه الله - : ووجه اتصالها بسورة يونس ، أنه ذكر في سورة يونس قصة نوح - عليه السلام - مختصرة جداً وبجملة ، فشرحت في هذه السورة ، وبسطت فيها ما لم تبسط في غيرها من السور . . . ثم إن مطلعها شديد الارتباط بمطلع تلك ، فإن قوله - تعالى - هنا : الر . كتاب أحكمت آياته . . . نظير قوله - سبحانه - هناك : الر . تلك آيات الكتاب الحكيم . . . بل يسين مطلع هذه وختام تلك شدة ارتباط - أيضاً - ، حيث ختمت بنسب الشرك ، واتباع الوحي ، وافتتحت هذه ببيان الوحي والتحذير من الشرك (٢) .

٦ - عرض لإجمالى للسورة الكريمة :

عندما نطالع سورة هود بتدبر وتأمل ، نراها في الربع الأول (٣) منها - قد افتتحت بالتنويه بشأن القرآن الكريم . وبدعوة الناس إلى إخلاص العبادة

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ١٤٥ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١١ ص ١٧٨ الطبعة المنيرية .

(٣) الآيات من ١ - ٢٤ .

الله - تعالى - وحده، وإلى التوجه إليه بالاستغفار والتوبة الصادقة، حتى يقالوا السعادة في دنياهم وآخرتهم .

قال - تعالى - : : أَلَمْ يَأْتِ الْكُفْرَاءَ مِنْ رَبِّكَ نَذِيرٌ . وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ يُمَتَّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ . إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير .

ثم وضحت السورة جانباً من مسالك الكافرين ، تلك المسالك التي تدل على جهالاتهم بعلم الله التام ، وبقدرته النافذة ، وفصلت مظاهر هذه القدرة ، وشمل هذا العلم ...

قال - تعالى - : : أَلَمْ يَأْتِ الْكُفْرَاءَ مِنْ رَبِّكَ نَذِيرٌ . وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ يُمَتَّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ . إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير .

ثم بينت أحوال الإنسان في حالة منحه النعمة ، وفي حالة سلبها عنه ، وساقته للرسول - صلى الله عليه وسلم - من الآيات ما يسليه عما أصابه من كفار مكة ، وتحدثهم أن يأتوا بعشر سور من مثل القرآن الكريم ، وأنذرهم بسوء عاقبة المعرضين عن دعوة الله ، الصادين عن سبيله ، الكافرين بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ، وبشرت المؤمنين بحسن العاقبة ، وضربت المثل المناسب لكل من فريق الكافرين والمؤمنين .

استمع إلى السورة السكرية وهي تصور كل ذلك بأدلوبها البليغ المؤثر فتقول :

« وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مَتَا رَحْمَةٍ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ . وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمًا بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه ، لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ اللَّيْلُ عَنْهُ إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ . إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ... »

إلى أن تقول بعد حديث مفصل عن الكافرين وسوء عاقبتهم : : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ

هم فيها خالدون . مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا ، أفلا تذكرون .

فإذا ما وصلنا إلى الربع^(١) الثاني من سورة هود ، وجدناها تسوق لنا بأسلوب مفصل ، قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، فتحكى أمره لهم بعبادة الله وحده ، كما تحكى الرد القبيح الذى رد به عليه زعماءهم ، وكيف أنه - عليه السلام - لم يقابل سفاهتهم بمثلها ، بل خاطبهم بلفظ «يا قوم» الدال على أنه واحد منهم ، يسره ما يسرهم ، ويؤلمه ما يؤلمهم ، ومع هذا فقد لجوا فى طغيانهم وقالوا له - كما حكى القرآن عنهم - «يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . . .»

فكان رده عليهم «إنما يأتىكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين . . .» .
وقد أتاهم الله - تعالى - بالعذاب الذى استعجلوه ، فأغرقهم بالطوفان الذى غشيم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، والذى قطع دابرهم .

ثم نراها بعد ذلك فى الربع^(٢) الثالث ، تقص علينا مشهدا مؤثرا ، مشهد نوح - عليه السلام - وهو ينادى ابنه الذى استحب الكفر على الإيمان فيقول له بشفقة وحرص : «يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين .»

ولكن الابن العاق لا يستمع إلى نصيحة أبيه العطوف بل يقول له :
«سأوى إلى جبل يعصمني من الماء .»

ويجيبه الأب بحزن وحسم «لأعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين .»

(١) الآيات من ٢٥ - ٤٠

(٢) الآيات من ٤١ - ٦٠

ويتضرع الأب الحزين إلى ربه فيقول : « رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين » .

وبآتيه الجواب من الله - تعالى - : « يا نوح إنه لبس من أمهلك إنه عمل غير صالح ، فلا نسألن ما ليس لك به علم ، إني أعظك أن تكون من الجاهلين » .

ويلجأ نوح - عليه السلام - إلى خالقه ، مستعيذا به من غضبه فيقول : « رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ، وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين » .

فيقبل الله - تعالى - ضراعتة فيقول : « يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك ، وعلى أمم من معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب ألیم » .

ثم يختم الله - تعالى - قصة نوح ، بتسليمه النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وبما يدل على أن هذا القرآن من عند الله ، فيقول : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ، إن العاقبة للمتقين » .

ثم تسوق السورة بعد ذلك قصة هود - عليه السلام - مع قومه ، فتحكي دعوته لهم إلى عبادة الله - تعالى - ، ومصارحته بإيمانه لا يريد منهم أجرا على دعوته ؛ وإرشادهم إلى ما يزيدهم غنى على غناهم ؛ وقوة على قوتهم ، ولكنهم قابلوا تلك النصائح الغالية بالكذب والسفاهة ، فقالوا له - كما حكى السورة عنهم - « يا هود ما جئنا ببينة ، وما نحن بتاركي آلِهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلِهتنا بسوء . . . »

فيرد عليهم هود بقوله : « إني أشهد الله ، وأشهدوا أني برىء مما تشركون . من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها . . . »

ثم كانت النتيجة بعد هذه المحاورات ، أن نجى الله هودا ، والذين آمنوا معه ، أما الكافرون بدعوته ، فقد نزل بهم العذاب الغليظ ، الذى تركهم صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية ...

وفى الربع (١) الرابع منها تسوق لنا السورة الكريمة ، مدار بين صالح وقومه ، حيث أمرهم بعبادة الله ، وذكرهم بنعمه عليهم ، وحذرهم من الاعتداء على الناقة التى هى لهم آية ... ولاكنهم استخفوا بتذكيره وتحذيره فكانت النتيجة لإهلاكهم ...

قال - تعالى - فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا منه معه برحمة منا ، ومن خذى يومئذ ، إن ربك هو القوى العزيز . وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ، ألا إن ثمود كفروا بربهم ألا بعدا لثمود .

ثم قصت علينا السورة الكريمة ما فعله إبراهيم - عليه السلام - عندما جاءه رسل الله بالبشرى ، وكيف أنهم قالوا له عندما أنكرهم وأوجس منهم خيفة : « لا تخف إنما أرسلنا إلى قوم لوط ... »

ثم وضحت حال لوط - عليه السلام - عندما جاءه هؤلاء الرسل ، وحكت مدار بينه وبين قومه الذين جاءوا بهرعون إليه عندما رأوا الرسل ، فقال لهم : « يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ، فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيقى ، أليس منكم رجل رشيد ... »

فيقولون له فى صفاقة وانحراف عن الفطرة السليمة : « لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق ، وإنك لتعلم ما نريد ... »

وأسقط فى يد لوط - عليه السلام - ، وأحس بضغفه أمام هؤلاء

المنحرفين المندفعين إلى ارتكاب الفاحشة ، اندفاع المجنون إلى حتفه ، فقال
بأسى وحزن : « لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد » .

وهنا كشف له الرسل عن طبيعتهم ، وأخبروه بمهمتهم ؛ وطلبوا منه أن
يفادر هو ومن آمن معه مكان إقامتهم ، فإن العذاب نازل بهؤلاء المجرمين بعد
وقت قصير .

« قالوا يا لوط إنا رسل ربك ، فأمر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت
منكم أحد إلا أمر أنك ، إنه يصيبها ما أصابهم ، إن موعدهم الصبح ، أليس
الصبح بقريب . فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من
سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد » .

ثم تتابع السورة الكريمة في الربع الخامس (١) ، حديثها عن جانب من
قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم ، فتحدثنا عن قصة شعيب - عليه السلام -
مع قومه ، وكيف أنه قال لهم مقالة كل رسول أقومه « يا قوم اعبدوا الله
ما لكم من إله غيره » .

ثم نهام بأسلوب رصين حكيم ، عن ارتكاب الفواحش التي كانت منتشرة
فيهم ، وهي إقصاء السكيل والميزان ، وبخس الناس أشياءهم . . .

واسكنتم - كمادة السفهاء الطغاة - قابلو نصائحهم بالتهكم والاستخفاف
والوعيد . . . فكانت النتيجة أن حل بهم عذاب الله الذي أهلّسهم ، كما
أهلك أمثالهم .

قال - تعالى - « ولما جاء أمرنا نجيتا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا ،
وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جانحين . كأن لم يغنوا فيها ،
ألا بعد المدبّين كما بدت ثمود » .

ثم تشوq السورة بعد ذلك بإيجاز ، جانباً من قصة موسى مع فرعون
وملكه . الذين اتبعوا أمر فرعون ، وما أمر فرعون برشيد .

ثم تعقب على كل تلك القصص السابقة ، بتعقيب يدل على أن هذا القرآن من عند الله ، وأنه - سبحانه - لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون . . . قال - تعالى - : « ذلك من أبناء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغضت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ، وما زادهم غير تنبيذ . . . »

أما في الربع السادس^(١) والآخر منها ، فنراها تبين بأسلوب قوى منذر ، أن الناس سيأتون يوم القيامة ، منهم الشقي ومنهم السعيد ، وأنه - سبحانه - سيوفي كل فريق منهم جزاءه غير منقوص .

ثم ترشد إلى ما يوصل إلى السعادة ، فتدعو إلى الاستقامة على أمر الله ، وإلى عدم الركون إلى الظالمين ، وإلى إقامة الصلاة طرقي النهار وزلفا من الليل ، وإلى الصبر الجميل .

قال - تعالى - : « فاستقيم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا ، إنه بما تعملون بصير . ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون . وأقم الصلاة طرقي النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين . واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

ثم ختمت السورة الكريمة ببيان أن من أهم مقاصد ذكر قصص الأنبياء في القرآن الكريم ، تثبيت فؤاد النبي - صلى الله عليه وسلم - وتقوية قلبه ، ونسليته عما أصابه ، وتبشير به بأن العاقبة له ولأتباعه .

قال - تعالى - : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين . وقيل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكاتبتكم إنما عاملون وافتظروا إنما منتظرون . والله غيب السموات

والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبدوه وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون ، .

٧ - أهم الموضوعات التي عنيت السورة الكريمة بالحديث عنها :

من استعرضنا لسورة هود ، ومن معرفه الفترة التي نزلت فيها ، نستطيع أن نقول : إن السورة الكريمة قد عنيت بالحديث عن موضوعات متنوعة من أهمها ما يأتي :

(١) ترغيب الناس في طاعة الله ، وتحذيرهم من معصيته ، وهذا المعنى نراه في كثير من آيات سورة هود ، ومن ذلك :

قوله - تعالى - : « ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير . . . » .

وقوله - تعالى - حكاية عن هود - عليه السلام - : « يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين . . . » .

وقوله - تعالى - حكاية عن شعيب - عليه السلام - : « يا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ . . . » .

(ب) تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من قومه ، ومن مظاهر هذه التسلية ، أن السورة الكريمة قد اشتملت في معظم آياتها على قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم . فقد ذكرت نواحي متنوعة من قصة نوح مع قومه ، ومن قصة هود مع قومه ، ومن قصة صالح مع قومه ، ومن قصة شعيب مع قومه ، ومن قصة لوط مع قومه . . . » .

وقد تحدثت خلال كل قصة عن المسالك الخبيثة ، والمجادلات الباطلة ، التي اتبعتها الطغاة مع أنبيائهم الذين جاءوا لسعادتهم وهدايتهم .

كما ختمت كل قصة من هذه القصص ، ببيان حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة المكذبين ..

وفي ذلك ما فيه من التسليية للرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - عما لحقه من أذى ، وما أصابه من اضطهاد ، وما تعرض له من اعتداء عليه وعلى أصحابه . وكان ماورد في هذه السورة من قصص طويل متنوع ، يقول للرسول - صلى الله عليه وسلم - : إن ما أصابك من قومك يا محمد ، قد أصاب الأنبياء السابقين من أقوامهم ، فاصبر كما صبروا ، فإنه ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك .

(ح) إقامة الأدلة على أن هذا القرآن من عند الله ، وليس من كلام البشر .. فقد تحدثهم هنا أن يأتوا بعشر سور من مثله فجزوا ، ثم تحدثهم في موطن آخر أن يأتوا بسورة من مثله فما استطاعوا ، وساق لهم - على لسان الرسول - صلى الله عليه وسلم - الكثير من أخبار الأولين ، ومن قصص الأنبياء مع أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يكن معاصراً لهؤلاء السابقين ، ولم يكن قارئاً لأخبارهم ، فلذلك على أن هذا القرآن من عند الله ، وعلى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - صادق فيما يبلغه عن ربه .

قال - تعالى - : « أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتربات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أقم مسلمون » .

وقال - تعالى - : « تلك من أبناء الغيب نوحها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ، إن العاقبة للمتقين » .

(د) بيان سنة من سنن الله التي لا تتخلف ، وهي أنه - سبحانه - لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم ؛ بإعراضهم عن الحق ، واتباعهم للهوى ، واستحقاقهم للعقوبة التي هي جزاء عادل لكل ظالم .

وهذا البيان نراه في مواضع متعددة من السورة ، ومن ذلك قوله - تعالى -
في ختام الحديث عن قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم .

« ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن
ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهم التي يدعون من دون الله من شيء ، لما
جاء أمر ربك وما زادهم غير تنزيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي
ظالمة ، إن أخذه أليم شديد . إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك
يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود . وما تؤخره إلا لأجل معدود . يوم
يأت لا تسكّم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد »

وبعد : فهذه تعريفات عن سورة هود ، رأينا أن ذكرها قبل البدء في
تفسيرها ، وأرجو أن يكون في ذكرها ما يعطى القارئ صورة واضحة عن
هذه السورة الكريمة .

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

محمد السيد طنطاوى

المدينة المنورة في ٢١ من صفر
سنة ١٤٠١ هـ / ١٢/٢٨ ١٩٨٠ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التفسير

«الرَّكِتَابُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١)
أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا
رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ
ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣)
إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) أَلَا إِنَّهُمْ يُلْتَوُونَ صُدُورُهُمْ
لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ، أَلَا حِينَ يَسْتَخْفُونَ مِنْهُ يَمْلِكُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُمْلِكُونَ
إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥)» .

سورة هود - عليه السلام - من السور التي افتتحت ببعض حروف التهجى
وقد سبق أن تسكلمنا بشيء من التفصيل عند تفسيرنا لسور : البقرة
وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ، عن آراء العلماء في المراد بهذه الحروف
المقطعة التي افتتحت بها بعض السور ...

ورجحنا أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت في افتتاح بعض سور
القرآن ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحذاهم القرآن .
فكان الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين في أن القرآن من عند الله
- تعالى - : هاكم القرآن تروونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تقولون به
كلامكم ، ومنظوما من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التي تنظمونها
منها حروفكم ، فإن كنتم في شك من كونه منزلا من عند الله فهاؤا مثله

وادعوا من شتم من الخلق لى يعاونكم فى ذلك ، أو هاتوا عشر سور من مثله ، أو هاتوا سورة واحدة

فلما عجزوا - وهم أهل الفصاحة والبيان - ثبت أن غيرهم أعجز ، وأن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا . وقوله : « أحكمت آياته » من الإحكام - بكسر الهمزة - وهذه المادة تستعمل فى اللغة لمعان متعددة ، ترجع إلى شىء واحد هو المنع . يقال : أحكم الأمر . أى : أيقنه ومنعه من الفساد . أى : منع نفسه ومنع الناس عما لا يليق ؛ ويقال أحكم الفرس ، إذا جعل له حكمة تمنعه من الجروح والاضطراب .

وقوله : « ثم فصلت » من التفصيل ، بمعنى التوضيح والشرح للحقائق والمسائل المراد بيانها ، بحيث لا يبقى فيها اشغاب أو لبس .

والمعنى : هذا الكتاب الذى أنزلناه إليك يا محمد ، هو كتاب عظيم الشأن ، جليل القدر ، ففد أحكم الله آياته إحكاما بديعا ، وأتقنها إتقاناً معجزاً ، بحيث لا يتطرق إليها خلل أو فساد . ثم فصل - سبحانه - هذه الآيات تفصيلاً حكيماً ، بأن أنزلها نجوماً ، وجعلها سورا سورا ، مشتملة على ما يسعد الناس فى دنياهم وآخرتهم ، من شئون العقائد ، والعبادات ، والمعاملات ، والآداب ، والأحكام

قال صاحب الكشف ماملخصه : « أحكمت آياته ، أى : نظمت نظاماً وصيغتها بحكماً ، بحيث لا يقع فيه نقض ولا خلل ، كالبناء المحكم المرصف وقيل : منعت من الفساد ، من قولهم : أحكمت الدابة ، إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجراح . قال جرير :

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم لى أخاف عليكم أن أغضبها

« ثم فصلت » كما تفصل القلائد بالفرائد ، ومن دلائل التوحيد والأحكام والمواضع والقصاص ، أو جعلت فصولاً سورة سورة ، وآية آية ، أو فرقته فى التنزيل ولم تنزل جملة واحدة (١) .

و. ثم ، في قوله - سبحانه - ، ثم فصلت ، للتراخي في الرتبة كما هو شأنها في عطف الجمل ، لما في التفصيل من الاهتمام لدى النفوس ، لأن العقول ترتاح إلى التفصيل بعد الإجمال ، والتوضيح بعد الإيجاز ...

وجملة : من لدن حكيم خبير ، صفة أخرى للكتاب ، وصف بها ، لإظهار شرفه من حيث مصدره ، بعد أن وصف بإحكام آياته وتفصيلها الدالين على علو مرتبته من حيث الذات أي : هذا الكتاب الذي أنفقت آياته إتقاناً بذيعاً ، وفصلت تفصيلاً رصيناً ، ليس هو من عند أحد من الخلق ، وإنما هو من عند الخالق الحكيم في كل أقواله وأفعاله ، الخبير بظواهر الأمور وبواطنها .

قال الشوكاني : وفي قوله ، من لدن حكيم خبير ، لف ونشر ، لأن المعنى : أحكمها حكيم ، وفصلها خبير ، عالم بمواقع الأمور ، (١) .

وقوله : ألا تعبدوا إلا الله ، جملة تعليمية ، أي : أفه - سبحانه - فعل ما فعل من إحكام الكتاب وتفصيله وتنزيله من لدن حكيم خبير ، لكي تخلصوا له العبادة والطاعة ، وتتركوا عبادة غيره ؛ لأن من أنزل هذا الكتاب المعجز ، من حقه أن يفرد بالخضوع والاستعانة .

وقوله : إنا أنزلنا الكتاب بقرآن عربي مبين ، بيان لو وظيفة الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

والضمير المجرور في : منه ، يعود على الله - تعالى - .
أي : عليكم - أيها الناس - أن تخلصوا لله - تعالى - العبادة والطاعة ، فإنه - سبحانه - قد أرسلني إليكم لكي أنذر الذين فسقوا عن أمره بسوء العقوبة ، وأبشر الذين استجابوا لدعوتي بحسن المثوبة .

وقدم - سبحانه - الإنذار على التبشير ؛ لأن الخطاب موجه إلى الكافرين ، الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى .

(١) تفسير فتح القدير ج ٢ ص ٤٨٠ .

قال بعضهم : ووالجمع بين النذارة والبشارة ، لمقابلة ما تضمنته الجملة الأولى من طلب ترك عبادة غير الله . بطريق النهى ، وطلب عبادة الله بطريق الاستغناء ، فالنذارة ترجع إلى الجزء الأول ، والبشارة ترجع إلى الجزء الثانى ، (١) .

ثم بين - سبحانه - ما يترتب على طاعته من خيرات فقال : **وَأَن تَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ، وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ**

والاستغفار طلب المغفرة والرحمة من الله - تعالى - .

والتوبة : الإقلاع عن كل مانع ، الله ، مع التصميم على عدم العودة إلى ذلك فى المستقبل .

ويمتدحكم : من الإمتاع ، وأصل الإمتاع الإطالة ، ومنه : أمتعنا الله بك .
أى : أطال لنا بقاءك .

والآية الكريمة معطوفة على قوله - سبحانه - قبل ذلك : **وَأَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ**

والمعنى : وعليكم - أيها الناس - بعد أن فبذتم كل عبادة لغير الله ، أن تديموا طلب مغفرته ورحمته ، وأن تتوبوا إليه توبة نصوحا ، فإنكم إن فعلتم ذلك ، يمتدحكم ، الله - تعالى - ، متاعا حسنا ، بأن يبدل خوفكم أمنا ، وفقركم غنى ، وشقاءكم سعادة ...

وقوله : **وَأَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ** : إلى أجل مسمى ، أى : إلى نهاية حياتكم التى قدرها الله لكم فى هذه الدنيا .

وقوله : **وَأَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ** : ويعطى كل صاحب عمل صالح جزاء عمله .

(١) تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ج ١ ص ٣١٥ .

فالمراد بالفضل الأول : العمل الصالح . والمراد بالفضل الثاني الثواب الجزيل من الله - تعالى - .

فالحكمة الكريمة ، وعد كريم من الله - تعالى - لكل من آمن وعمل صالحا . وحكمة ثم توبوا إليه ، معطوفة على استغفروا . و « ثم » هنا على بابها من التراخي ، لأن الإنسان يستغفر أولا ربه من الذنوب ، ثم يتوب إليه التوبة الصادقة النصوح التي لا رجعة معها إلى ارتكاب الذنوب مرة أخرى .

ووصف المتاع بالحسن ، ليدل على أنه عطاء ليس مشروبا بالمكدرات والمنفصات التي تقلق الإنسان في دنياه ، وإنما هو عطاء يجعل المؤمن يتمتع بنعم الله التي أسبغها عليه ، مع المداومة على شكره - سبحانه - على هذه النعم . قال - تعالى - « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحْيِيَنَّهُ حَيَاة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

ثم حذر - سبحانه - من الإعراض عن طاعته فقال : « وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير » .

أي : ذكرهم أيها الرسول الكريم بأن في إخلاصهم العبادة لله ، وفي طاعتهم له ، سعادتهم الدنيوية والآخروية ، وفي إعراضهم عن ذلك شقاؤهم وحلول العذاب بهم .

أي : إن تتولوا - أيها الناس - عن الحق الذي جئتكم به ، فإني أخاف عليكم عذاب يوم القيامة ، الذي هو عذاب كبير هوله ، عظيم وقعه ، كما أخاف عليكم عذاب الدنيا .

فتذكروا يوم ، للتحويل والتعميم ، حتى يشمل عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، حيث إنهم كانوا ينكرون البعث والحساب ، فتخويفهم بالعذابين أجز لئفوسهم القاسية ، وقلوبهم العاتية .

وفي وصفه بالكبر ، زيادة - أيضا - في تهويله وشدته ، حتى يشوبوا إلى رشدهم ، ويقلموا عن غيهم وعنادهم .

وقوله - سبحانه - (إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير) تحذير آخر لهم ، إثر التحذير من الإعراض عما جاءهم به فيهم - على الله عليه وسلم - والمرجع : مصدر ميمي بمعنى الرجوع الذي لا انفكاك له لهم منه ، ولا يحيد لهم عنه .

أى : إلى الله - تعالى - وحدو رجوعكم مهما طالت حياتكم ، ليحاسبكم على أعمالكم ، ويجازيكم عليها بما تستحقونه من جزاء ، وهو - سبحانه - على كل شيء قدير ، لا يعجزه أمر ، ولا يحول بينه وبين ففاد إرادته حائل :

وما دام الأمر كذلك ، فأخلصوا لله العبادة ، واستغفروه ثم توبوا إليه لتظفروا بالسعادة العاجلة والآجلة .

ثم حكى - سبحانه - جافاً من جهالات المنحرفين عن الحق ، ومن أوهامهم الباطلة ، فقال - تعالى - :

«ألا إنهم يثنون صدورهم ليستغفروا منه ، ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه عليهم بذات الصدور ،

وقوله : « يثنون » من الثنى بمعنى الطى والستر . يقال : ثنيت الثوب إذا طويته على ما فيه من الأشياء المستورة .

وثنى الصدور : لأمثالها وطائفتها وحنيتها بحيث تسكن القامة غير مستقيمة . والاستخفاء : محاولة الاختفاء عن الأعين . ومنه قوله - تعالى - يستغفون من الناس ولا يستغفون من الله وهو معهم (١)

وقوله : « يستغشون ثيابهم » ، أى : يتدثرون ويتغطون بها ، مبالغة في الاستخفاء عن الأعين . فالسين والتاء فيه للتأكيد ، كما فى قوله - تعالى - واستغشوا ثيابهم أى : جملوها كالغشاء عليهم .

وقد ذكر بعض المفسرين في سبب نزول هذه الآية روايات منها: أنه كان الرجل من الكفار يدخل بيته ، ويرخي ستره ، ويحشى ظهره ، ويتغشى بثوبه ثم يقول : هل يعلم الله بما في قلبي فنزلت هذه الآية .

وقيل : نزلت في المنافقين ، كان أحدهم إذا مر بالنبي - صلى الله عليه وسلم - نفي صدره . وتغشى بثوبه لئلا يراه ،

وقيل نزلت في الأخنس بن شريق ، وكان رجلا حلو المنطق ، حسن السياق للحديث ، يظهر لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - الحجة ، ويضمر في قلبه ما يضادها ... (١)

وعلى أية حال فإن الآية السكرية تصور تصورا بديها جمالات بعض الضالين بعلم الله - تعالى - المحيط بكل شيء ، كما تصور تصورا دقيقا أوضاعهم الحسية حين يأتون إلى فراشهم ، وحين يلتقون بالنبي - صلى الله عليه وسلم - والضمير المجرور في قوله : منه ، يعود إلى الله - تعالى - وعليه يكون المعنى ألا إن هؤلاء المشركين يلوون صدورهم عن الحق الذي جاءهم به نبيهم - صلى الله عليه وسلم - توهمًا متهم أن فعلهم هذا يخفى على الله - تعالى -

ومنه من يرى أن الضمير في قوله : منه ، يعود إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وعليه يكون المعنى :

ألا إن هؤلاء المشركين يعرضون عن لقاء انبي - صلى الله عليه وسلم - ويغطون رؤوسهم عند رؤيته ، ليستخفوا منه ، حتى لا يؤثر فيهم بسحرياته ومع أن كلا القولين له وجهته وله من سبب النزول ما يؤيده ، إلا أننا نميل إلى كون الضمير يعود على الله - تعالى - لأن قوله - تعالى - بعد ذلك : يعلم ما يسرون وما يعلنون ، يؤيد عودة الضمير إليه - سبحانه - إذ علم السر والعلن مرده إليه وحده .

وافتتحت الآية الكريمة بحرف التنبيه « ألا » ، وجيء به مرة أخرى في قوله « ألا حين يستغثون ثيابهم . . . » ، للاهتمام بمضمون الكلام ، وللفت أنظار السامعين إلى ما بلغه هؤلاء الضالون من جهل وانطاس بصيرة .

ثم بين - سبحانه - أنه لا يخفى عليه شيء من أحوالهم فقال : « ألا حين يستغثون ثيابهم : يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور » ،

أي : ألا يعلم هؤلاء الجاهلون أنهم حين يأوون إلى فراشهم ، ويتدثرون بلباسهم ، يعلم الله - تعالى - ما يسرونه في قلوبهم من أفكار ، وما يعلنونه بأفواههم من أقوال ، لأنه - سبحانه - محيط بما تضرعه النفوس من خفايا ، وما يدور بها من أسرار .

وجملة « إنه عليم بذات الصدور » ، تعليلية لتأكيد ما قبلها من علمه - سبحانه - بالسر والعلن . والمراد بذات الصدور : الأسرار المستكنة فيها .

هذا ، وقد ذكر ابن كثير رواية أخرى في سبب نزول هذه الآية فقال : قال ابن عباس :

« كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم وحال وقاعهم ، فأنزل الله هذه الآية رواه البخاري من حديث ابن جريج . . . »

وفي لفظ آخر له قال ابن عباس : « أفاضوا كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفيضوا إلى السماء ، وأن يجامعوا نساءهم فيفيضوا إلى السماء ، فنزل ذلك فيهم . . . » (١)

وظاهر من هذا الكلام المنقول عن ابن عباس أنها نزلت في شأن جماعة من المسلمين هذا شأنهم ، ولعل مراده أن الآية تنطبق على صنيعهم وليس فعلهم هو سبب نزولها ، لأن الآية مسوقة للتوبيخ والذم ، والذين يستحقون ذلك هم أولئك المشركون وأشباهم الذين أعرضوا عن الحق ، وجعلوا صفات الله

« تعالى - قال الجمل بعد أن ذكر قول ابن عباس : وتنزيل الآية على هذا القول بعيد جدا ، لأن الاستحياء من الجماع وقضاء الحاجة في حال كشف العورة إلى جهة السماء ، أمر مستحسن شرعا ، فكيف يلام عليه فاعله ويذم بمقتضى سياق الآية ، (١) »

ولذا فالذي يستدعيه السياق ويقتضيه ربط الآيات ، كون الآية في ذم المشركين ومن على شاكلتهم من المنحرفين عن الطريق المستقيم ثم ساقه - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته ، وسابغ فضله ، وشمول عليه فقال - تعالى - :

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ، وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ، كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦) وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ، وكان مرشده على الماء ليلوكم أيكم أحسن عملا ، ولئن قلنا إنكم مبعوثون من بعد الموت ، ليقولن الذين كفروا ، إن هذا إلا سحر مبين (٧) . »

قال الألوسي ماملخصه : الدابة لسم لكل حيوان ذي روح ، ذكر أكان أو أنثى ، عاقلا أو غيره ، مأخوذ من الديب وهو في الأصل المشى الخفيف ... واختصت في العرف بذوات القوائم الأربع .

والمراد بها هنا المعنى اللغوي باتفاق المفسرين ... ، (٢)

قال - تعالى - : « والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ،

(١) حاشية الجمل على الجلالين > ٢ ص ٢٨٠

(٢) تفسير الألوسي > ١٢ ص ٢

ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء ،
إن الله على كل شيء قدير (١)

والمراد برزقها : طعامها وغذاؤها الذي به قوام حياتها .
والمعنى : وما من حيوان يدب على الأرض ، إلا على الله - تعالى - غذاؤه
ومعاشه ، فضلا منه - سبحانه - وكرما على مخلوقاته .

وقدم - سبحانه - الجار والمجرور ، على الله ، على متعلقة وهو رزقها ،
لإفاده القصر . أى على الله وحده لا على غيره رزقها ومعاشها .

وكون رزقها ومعاشها على الله - تعالى - لا ينافى الأخذ بالأسباب ، والسعى
في سبيل الحصول على وسائل العيش ، لأنه - سبحانه - وإن كان قد تكفل
بأرزاق خلقه ، إلا أنه أمرهم بالاجتهاد في استعمال كافة الوسائل المشروعة
من أجل الحصول على ما يفتنيهم ويسد حاجتهم .

قال - تعالى - : هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا في مناكبها ،
وكلوا من رزقه وإليه النشور ، (٢)

وجملة ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، بيان لشمول علمه - سبحانه - لكل
شيء في هذا الكون .

والمستقر والمستودع : إسماء مكان محل الاستقرار والإيداع للذابة في هذا
الكون ، سواء أكان ذلك في الأضلاب أم في الأرحام أم في القبور أم في غيرها
قال الشوكاني : أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم
وأبو الشيخ ، عن ابن عباس في قوله ، ويعلم مستقرها ، قال : حيث تأوى .
و مستودعها ، قال : حيث تموت .

(١) سورة النور الآية ٤٥

(٢) سورة الملك الآية ١٥

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : مستقرها في الأرحام ومستودعها حيث تموت .

قال : ويؤيد هذا التفسير الذي ذهب إليه ابن مسعود ما أخرجه لترمذي الحكيم في نوادر الأصول والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : إذا كان أجل أحدكم بأرض ، أتيجت له إليها حاجة ، حتى إذا بلغ أقصى أثره منها فيقبض . فتقول الأرض يوم القيامة : هذا ما استودعته ^(٢) .

وقوله : « كل في كتاب مبين » ، تذييل قصد به بيان دقة علمه - سبحانه - بعد بيان شمول هذا العلم وإحاطته بكل شيء .

والتنوين في « كل » هو تنوين العوض . أي : كل ما يتعلق برزق هذه الدواب ومستقرها ومستودعها مسجل في كتاب مبين ، أي : في كتاب واضح جلي ظاهر في علم الله - تعالى - ، بحيث لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وهذا الكتاب هو اللوح المحفوظ .

ثم ساق - سبحانه - ما يشهد بعظيم قوته فقال - تعالى - : « وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام » ،

والأيام جمع يوم ، والمراد به هنا مطلق الوقت الذي لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى - .

أي : وهو - سبحانه - الذي أنشأ السموات والأرض وما بينهما ، على غير مثال سابق ، في ستة أيام من أيامه - تعالى - ، التي لا يعلم مقدار زمانها إلا هو .

وقيل : أنشأهن في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا .

قال سعيد بن جبير - رضي الله عنه - : كان قادرا على خلق السموات

والأرض وما بينهما في لحظة واحدة : خلقهن في ستة أيام ، تعظيما لعباده الثابت .
والثاني في الأمور .

وقد جاءت آيات تدل على أنه - سبحانه - خلق الأرض في يومين ، وخلق السموات في يومين ، وخلق ما بينهما في يومين ، وهذه الآيات هي قوله - تعالى - :
« قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين »

ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ،
فالتتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات في يومين ، وأوحى في كل سما
أمرها . . . ، (١)

وجملة « وكان عرشه على الماء » اعتراضية بين قوله « خلق السموات والأرض » ،
وبين « ليليلوكم أيكم أحسن عملا » ، ويجوز أن تكون حالية من فاعل خلق
وهو الله - تعالى - وعرش الله - تعالى - من الألفاظ التي لا يعلمها البشر إلا
بالاسم . وقد جاء ذكر العرش في القرآن الكريم لمحدثي وعشرين مرة .

ونحن مكلفون بأن نؤمن بأن له - سبحانه - عرشا ، أما كيفيته فنفوض
عليها إليه - تعالى - .

والمعنى : أن الله - تعالى - خلق السموات والأرض في ستة أيام ، وكان
عرشه قبل خلقهما ليس تحته شيء سوى الماء .

قالوا : وفي ذلك دليل على أن العرش والماء كانا موجودين قبل وجود
السموات والأرض .

قال القرطبي : قوله : « وكان عرشه على الماء » ، بين - سبحانه - أن خلق
العرش والماء ، كان قبل خلق الأرض والسماء

ثم قال : وروى البخارى عن عمران بن حصين قال كنت عند النبي - صلى الله عليه وسلم - إذ جاءه قوم من بني تميم فقال : « اقبلوا البشرى يا بني تميم » قالوا : بشرتنا فأعطنا . فدخل ناس من أهل اليمن فقال : اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم ، قالوا : قبلنا . جئنا لتشفه في الدين ، ولنسألك عن هذا الدين ونسألك عن أول هذا الأمر .

قال : « كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء . ثم خلق السموات والأرض ، وكتب في الذكر كل شيء » (١)

وقال ابن كثير بعد أن ذكر هذا الحديث وغيره : وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء . .

وورى الإمام أحمد عن أبيه بن عامر العقيلي قال : قلت يا رسول الله ، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : كان في عمام ، ماتحته هواء ، وما فوقه هواء ، ثم خلق العرش بعد ذلك (٢) والعمام : السحاب الرقيق ، أى فوق سحاب مدبر اله ، وعاليا عليه . والسحاب ليس تحته سوى الهواء ، وليس فرقه سوى الهواء . والمراد أنه ليس مع الله - تعالى - شيء آخر .

وقوله - سبحانه - « ليا بولوكم أيكم أحسن عملا » جملة تعليلية . ويا بولوكم من الابتلاء بمعنى الاختبار والامتحان .

أى : خلق ما خلق من السموات والأرض وما فيها من كائنات ، ورتب فيها جميع ما تحتاجون إليه من أسباب معاشكم ، ليعاملكم معاملة من يختبر غيره ، ليميز المحسن من المسئى ، والمطيع من العاصى ، فيجازى المحسنين والطائعين بما يستحقون من ثواب ، وبعاقب المسيئين والعاصين بما هم أهلون من عقاب .

(١) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٨

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٤٠ طبعة الشعب .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : كيف قيل : « أياكم أحسن عملا » وأعمال المؤمنين هي التي تتفاوت إلى حسن وأحسن ، فأما أعمال المؤمنين والكافرين فتفاوتها إلى حسن وقبيح ؟ قلت : الذين هم أحسن عملا هم المقنون وهم الذين استبقوا إلى تحصيل ما هو مقصود الله - تعالى - من عباده ، نخصهم بالذكر . واطرح ذكر من وراهم ، تشريفا لهم ؛ وتنبها على مكانهم منه ، وإيكون ذلك لطفًا للسامعين ، وترغيبا في حيازة فضلهم ^(١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية المكرمة ببيان موقف الكافرين من البحث والنساب فقال : « ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » .

^١ أي . ولئن قلت يا محمد هؤلاء الكافرين الذين أرسلك الله لإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، لئن قلت لهم : « إنكم مبعوثون ، يوم القيامة » من بعد الموت ، الذي سيدر كسكم في هذه الدنيا عند نهاية أجالكم « ايقولن ، لك هؤلاء الكافرون على سبيل الإنكار والتكبر ما هذا الذي تقول يا محمد » إلا سحر مبين ، أي : إلا سحر واضح جلي ظاهر لا لبس فيه ولا غموض .

وقرأ حمزة والكسائي وخلف « إلا ساحر مبين » فتسكون الإشارة بقوله « هذا » إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - أي : أنه في زعمهم يقول كلاما ليسحرم به ، وليهزفهم عما كان عليه آباؤهم وأجدادهم .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك لونا من ألوان غرور المشركين ، كما بين أحوال بعض الناس في حالتي السراء والضراء فقال - تعالى - :

« وَاتَّخَذُوا آخِرَتَهُمْ عَذَابًا إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لِيَقُولُوا مَا يَجْبُسُهُ ، أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَعَهُمُ شَعْرَةٌ مِنْ شَيْءٍ وَهَاتُوا لَهُمُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨) »

ولئن أذقنا الإنسان منا رحمةً ثم نرعاها منه ، إنه ليؤوس كفوراً (٩)
ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مستى ليقولن ذهب السبئات عني ، إنه
فرح فخور (١٠) إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم
مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ (١١) »

قال القرطبي ما اخصه : الأمة : اسم مشترك يقال على ثمانية أوجه : فالأمة
تسكن الجماعة ، كقوله - تعالى - : « وجد عليه أمة من الناس ... » ، والأمة :
أيضا أتباع الأنبياء عليهم السلام ، والأمة : الرجل الجامع للخير الذي يقتدى
به ، كقوله - تعالى - : « وإن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً ، والأمة : الدين
والملة ، كقوله - تعالى - : « وإنا وجدنا آباءنا على أمة » ، والأمة : الحين والزمان
كقوله - تعالى - : « وادكر بعد أمة » ، والأمة : القاعة ، وهو طول الإنسان
وارتفاعه ، يقال من ذلك : فلان حسن الأمة ، أى القامة والأمة : الرجل
المنفرد بدينه وحده ، لا يشركه فيه أحد . قال - صلى الله عليه وسلم : يبعث
زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده ، والأمة : الام ، يقال : هذه أمة زيد ، أى
أمة زيد ... » (١) والمراد بالأمة هنا : الحين والزمان والمدة .

والمعنى : ولئن أخرنا - بفضلائنا وكرمنا - عن هؤلاء المشركين العذاب ،
المقتضى لحجودهم لآياتنا ، وتكذيبهم لرسالنا ، إلى أمة معدودة ، أى : إلى
وقت معين من الزمان على حسب إرادتنا وحكمتنا ؛ « ليقولن » على سبيل
التعظيم والاستهزاء ، واستعجال العذاب ، « ما يحبسها » أى : ما الذى جعل هذا
العذاب الذى حذرنا منه محمد - صلى الله عليه وسلم - محبوساً عنا ، وغير
قابل بنا ... »

ولاشك أن قولهم هذا ، يدل على بلوغهم أقصى درجات الجهالة والطغيان ،

حيث قابلو رحمة الله - تعالى - المتمثلة هنا في تأخير العذاب عنهم ، بالاستهزاء والاستعجال ، ولذا رد الله - تعالى - عليهم بقوله : « ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم ، وحق بهم ما كانوا به يستهزئون ، أرى : ألا إن ذلك العذاب الذى استعجلوه واستخفوا به ، يوم ينزل بهم ، لن بصرفه عنهم صارف ، ولن يدفعه عنهم دافع ، بل سيحيط بهم من كل جانب ، بسبب استهزائهم به ولمعراضهم عن حذرهم منه .

واللام فى قوله « ولئن أخرنا عنهم العذاب ، موطئة للقسم ، وجواب القسم قوله « ليقولن ما يحبسهم » .

والأقرب إلى سياق الآية أن يكون المراد بالعذاب هنا : عذاب الاستئصال الدنيوى ، إذ هو الذى استعجلوا نزوله ، أما عذاب الآخرة فقد كانوا منكرين له أصلا ، كما حكى عنهم - سبحانه - فى الآية السابقة فى قوله : « ولئن قلنا إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » .

قال الألوسى : والظاهر أن المراد "العذاب الشامل للكفرة" ، ويؤيد ذلك ما أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : لما نزل « اقتراب للناس حسابهم » ، قال ناس : إن الساعة قد اقتربت فتنهاؤا ، فتنهاى القوم قليلا ، ثم عادوا إلى أعمالهم السوء ، فأنزل الله - تعالى - : « أنى أمر الله فلا تستعجلوه » ، فقال أناس من أهل الضلالة : هذا أمر الله - تعالى - قد أتى ، فتنهاى القوم ثم عادوا إلى مكرهم مكر السوء ، فأنزل الله هذه الآية « (١) » .

وفى قوله - سبحانه - « إلى أمم معدودة » ليعلم إلى أن تأخير العذاب عنهم ليس لمدة طويلة ، لأن ما يحصره العدد : جرت العادة فى أساليب العرب أن يكون قليلا ، ويؤيد ذلك أنه بعد فترة قليلة من الزمان نزل بهم فى غزوة بدر القتل الذى أهلك صنادهم ، والأمر الذى أذل كبريائهم .

وافتح تحت جملة « ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم » بأداة الاستفتاح « ألا » ، للاهتمام بمضمون الخبر ، وللإشارة إلى تحقيقه ، وإدخال الروع في قلوبهم .

وعبر بالماضي « حاق » مع أنه لم ينزل بهم بعد ، للإشارة ، إلى أنه آت ، لا ريب فيه ، عندما يأذن الله . - تعالى - بذلك .

ثم بين - سبحانه - جانباً من طبيعة بنى آدم إلا من عصم الله فقال - تعالى - « ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور... » والمراد بالإنسان هنا الجنس على أرجح الأقوال ، فيشمل المسلم وغيره ، بدليل الاستثناء الآتى بعد ذلك فى قوله ، إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات . قال الفخر الرازى ماملاً خصه : المراد بالإنسان هنا مطلق الإنسان وبدل عليه وجوه :

الأول : أنه - تعالى - استثنى منه قوله « إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات » والاستثناء يخرج من الكلام مالولاه لدخل ، فثبت أن الإنسان المذكور فى هذه الآية داخل فيه المؤمن والكافر .

الثانى : أن هذه الآية موافقة على هذا التقرير لقوله - سبحانه - : والعصر إن الإنسان لنى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ...

الثالث : أن مزاج الإنسان مجبور على الضعف والجز . قال ابن جريج فى تفسير هذه الآية : يأن آدم إذا نزلت بك نعمة من الله فأنت كفور ، فإذا نزع منك فيؤوس قنوط ^(١) .

وقيل المراد بالإنسان هنا جنس الكفار فقط ، لأن هذه الأوصاف تناسبهم وحدهم .

والمراد بالرحمة هنا : رحمة الدنيا، وأطلقت على أثرها ودر النعمة كالصحة والغنى والأمان وسأ يشبه ذلك من ألوان النعم .

والليؤوس والكفور : صيغتا مباغة للشخص الكثير اليأس والقنوط ، الشديد الجحود لنعم الله - تعالى - يقال : ينس من الشيء يياس ، إذا قنط منه . والمعنى : ولئن منحنا الإنسان - بفضلنا وكرمنا - بعض نعمنا ، كالصحة والغنى والسلطان والأمان « ثم نزعناها منه » أي : ثم سلبناها منه ، لأن حكمتنا تقتضى ذلك .

« إنه » فى هذه الحالة « ليؤوس كفور » أي : لشديد اليأس والقنوط من أن يرجع إليه ما سلب منه أو مثله ، وللكثير الكفران والجحود لما سبق أن تقابل فيه من نعم ومن .

قال الشوكانى : وفى التعبير بالدوق ما يدل على أنه يكون منه ذلك عند سلب أدنى نعمة ينعم الله بها عليه ، لأن الإذاقة والدوق أقل ما يوجد به الطعم (١) .

وفى قوله « ثم نزعناها منه » إشارة إلى شدة تعلقه بهذه النعم ، وحرصه على بقائها معه .

وجملة « إنه ليؤوس كفور ، جواب القسم ، وأكدت بأن وباللام ، المقصد تحقيق مضمونها ، وأقره حقيقة ثابتة .

وهى تصوير بليغ صادق لما يعترى نفس هذا الإنسان عندما تسلب منه النعمة بعد أن ذاقها ، فهو - لقلته لإيمانه وضعف ثقته بربه - قد فقد كل أمل فى عودة هذه النعمة إليه ، ولا كأن هذه النعمة التى سلبت منه لم يرها قبل ذلك .

ثم بين - سبحانه - حالة هذا الإنسان اليؤوس الكفور ، عندما قاتبه

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٢ ص ٤٨٥ ،

سراء بعد الضراء فقال : «ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ، ليقولن ذهب السيئات عني ، إنه لفرح نفور ، » .

والنعماء : النعمة التي يظهر أثرها على صاحبها ، واختير لفظ النعماء لمقابلته للضراء .

والضراء : ما يصيب الإنسان من مصائب يظهر أثرها السيء عليه .

والمراد بالسيئات : الأضرار التي لحقت كال فقر والمرض .

والمعنى : ولئن أذقنا هذا الإنسان اليؤوس الكفور ، نعماء بعد ضراء مسته ، كصحة بعد مرض ، وغنى بعد فقر ، وأمن بعد خوف ، ونجاح بعد فشل ...

« ليقولن ذهب السيئات عني » أي : ليقولن في هذه الحالة الجديدة ببطر وأشر ، وغرور وتكبر ، لقد ولت المصائب عني الأدبار ، ولن تعود إلي .

وعبر — سبحانه — في جانب الضراء بالمس : الإشارة إلى أن الإصابة بها أخف مما تدوفه من نعماء ، وأن لطف الله شامل لعباده في كل الأحوال .

وجملة « إنه لفرح نفور » جواب القسم .

أي : إنه لشديد الفرح واليطر بالنعمة . كثير التباهي والتفاخر بما أعطى منها ، مشغول بذلك عن القيام بما يجب عليه نحو خالقه من شكر وثناء عليه — سبحانه — .

ولها — أيضا — لصورة صادقة لهذا الإنسان العجول القاصر ، الذي يعيش في لحظة الحاضرة ، فلا يتذكر فيما مضى ، ولا يتفكر فيما سيكون عليه حاله بعد الموت ، ولا يعتبر بتقلبات الأيام ، فهو يؤوس كفور إذا نزعت منه النعمة ، وهو بطر نفور إذا عادت إليه ، وهذا من أسوأ ما تصاب به النفس الإنسانية من أخلاق مردولة .

وقوله : « إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ... » استثناء من هؤلاء الناس الذين لا يصبرون عند الشدة ، ولا يشكرون عند الرخاء .

أى : إلا الذين صبروا على النعمة كما صبروا على الشدة ، وعملوا فى الحالتين الأعمال الصالحات التى ترضى الله - تعالى - .

« أولئك » الموصوفون بذلك ، لهم ، من الله - تعالى - « مغفرة » عظيمة تسح ذنوبهم ، وأجر كبير « منه » سبحانه - لهم . جزاء صبرهم الجميل ، وعملهم الصالح .

وفى الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « والذى نفسى بيده ، لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وليس ذلك لأحد غير المؤمن » .

ثم بين - سبحانه - بعض أقوال المشركين ، التى كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يضيق بها صدره ، وتحزن منها نفسه ، فقل - تعالى - :

« فَأَعْلَمَكَ تَارَكَ بَعْضَ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ، أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ كُنُزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » (١٢) .

قال الفخر الرازى - رحمه الله - : روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رؤساء مكة قالوا يا محمد ، اجعل لنا جبال مكة ذهابا وإن كنت رسولا ، وقال آخرون : اتنا بالملائكة يشهدون بنبوتك . فقال : لا أقدر على ذلك ، فنزلت هذه الآية « (١) » .

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى ج ١٧ ص ١٩٢ طبعة عبيد الرحمن

ولفظ دلعل ، - كما يقول الألوسي - للترجي ، وهو يقتضى التوقع ، ولا يلزم من توقع الشيء وقوعه ولا ترجح وقوعه ، لجواز أن يوجد ما يمنع منه ، فلا يشكل بأن توقع ترك التبليغ منه - صلى الله عليه وسلم - مما لا يليق بمقام النبوة ، لأن المانع منه هنا ثبوت عصمته - صلى الله عليه وسلم - عن كتم شيء أمر بتبليغه والمقصود بهذا الأسلوب هنا تحريضه - صلى الله عليه وسلم - وتهيج دأبعته لأداء الرسالة ، ويقال نحو ذلك فى كل توقع نظير هذا التوقع (١) .

و « قارك » اسم فاعل من الفعل ترك . و « ضائق » اسم فاعل من الفعل ضاق ، وهو معطوف على « تارك » .

والمراد ببعض ما يوحى إليه صلى الله عليه وسلم - فى قوله - سبحانه - « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك » : ما نزل عليه - صلى الله عليه وسلم - من قرآن فيه استهزاء بأهلتهم ، وتصفية لعقولهم التى امتساعت أن تشرك مع الله - تعالى - فى عبادتها آلهة أخرى ،

والضمير المجرور فى قوله - سبحانه - « وضائق به صدوك » ، يعود إلى البعض الموحى به ، وقيل يعود للتبليغ ، وقيل للتكذيب .

وجملة « أن يقولوا » فى محل نصب على أنها مفعول لأجله ، أى : كراهة أو خشية أن يقولوا .

والكثرة : يطلق على الحال الكثير المجموع بعض إلى بعض سواء أكان فى بطن الأرض أم على ظهرها ، ومرادهم بإزالته هنا : أن ينزل على الرسول - صلى الله عليه وسلم - من السماء مال كثير يغنيه هو وأصحابه ، ويجعلهم فى رغد من العيش ، بدل ما يبدو على بعضهم من فقر وفاقة . . .

والمعنى : ليس خافيا علينا - أيها الرسول الكريم - ما يفعله المشركون بك ، من تكذيب لدعوتك ، ومن جحود لرسالتك ، ومن مطالب متنته يطلبونها منك . . .

(١) تفسير الألوسي ج ١٢ ص ١٨ . طبعة منير الدمشقي .

ليس خافيا علينا شيئا من ذلك ، ولعلك إزاء مسائلهم القبيحة هذه ، تارك تبليغ بعض ما يوحى إليك ، وهو ما يثير غضبهم ، وضائق صدرك بهذا التبليغ ، كراهة تكذيبهم لوحى الله ، واستهزائهم بدعوتك ، وقولهم لك على سبيل التعنت : هلا أنزل إليك من السماء كتير نستغنى به ونغنى أقبصاك ، وهلا كان معك ملك بصاحبك فى دعوتك ، ويشهد أمامنا بصدقك . ويؤيدك فى تحصيل مقصودك ...

لا - أيها الرسول الكريم - لا تترك شيئا من تبليغ ما أمرك الله بتبليغه هؤلاء المشركين ، ولا يضق صدرك بأفعالهم الذميمة ، وبأقوالهم الباطلة ، بل واصل دعوتك لهم إلى طريق الحق ، فما عليك إلا الإنذار ، أما نحن فإلينا لإيائهم ، وعلينا حسابهم .

وعبر - سبحانه - عن تأثر الرسول - صلى الله عليه وسلم - من مراقبتهم المتعنتة باسم الفاعل « ضائق » ، لا بالصفة المشبهة « ضيق » ، مراعاة المقابل وهو قوله « تارك » ، والإشارة إلى أن هذا الضيق مما يعرض له - صلى الله عليه وسلم - أحيانا ، وليس صفة ملازمة له ، لأن اسم الفاعل يقتضى الحدوث والانقطاع ، بخلاف الصفة المشبهة فتقتضى الثبات والدوام .

وأبرز - سبحانه - هنا صفة الإنذار للرسول - صلى الله عليه وسلم - مع أن وظيفته الإنذار والتبشير ، لأن المقام هنا يستوجب ذلك ، إذ أن هؤلاء المشركين قد تجاوزوا كل حد فى الإساءة إليه - صلى الله عليه وسلم - .

وقوله - سبحانه - « والله على كل شيء وكيل » ، تدبيل قصد به زيادة تقيته وتحريره على المصطفى فى تبليغ دعوته .

أى : سر فى طريقك - أيها الرسول الكريم - غير مهال بما يصدر عنهم من مضايقات لك ، والله - تعالى - حافظ لأحوالك وأحوالهم ، وسيجازيهم بالجزاء الذى يتناسب مع جرائمهم وكفرهم .

والتأمل في هذه الآية الكريمة يراها تعبر أكل تعبير عن الفترة الحرجة التي نزلت فيها هذه السورة الكريمة ، فقد سبق أن قلنا عند التعريف بها ، إنها نزلت في الفترة التي أعقبت وفاة النصيرين الكبيرين للرسول - صلى الله عليه وسلم - وهما أبو طالب وخديجة - رضى الله عنها - وكانت هذه الفترة من أشق الفترات على الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، حيث تكاثرت فيها لميذات المشركين له ولأصحابه ...

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة تحت النبى - صلى الله عليه وسلم - على الثبات والصبر ، وعلى تبلغ ما يوحى إليه ، مع عدم المبالاة بما يصنعه المشركون في طريقه من عقبات ...

هذا ، وقد سبق أن بينا عند التعريف بهذه السورة - أيضا - ، أن من العلماء من يرى أن هذه الآية مدنية ، ولعلك معنى - أيها القارئ الكريم - في أنه لا يوجد أى دليل تقلى أو عقلى يؤيد ذلك ، بل الذى يؤيده الأدلة ويؤيده سبب النزول أن الآية مكية كبقية السورة .

وهناك آيات أخرى مكية تشبه هذه الآية في أسلوبها وموضوعها ، ومن هذه الآيات قوله - تعالى - : « وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق ، لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا . أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ، ... » (١) .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك زعما آخر من مزاعمهم الكثيرة ، وهو دعواهم أن القرآن مفترى ، وتحداهم أن يأتوا بعشر سور من أمثال هذا القرآن المفترى في زعمهم ، فقال - تعالى - :

« أم يقولون افتراء ، قل فأتوا بعشر سورٍ مثله مفتريات ، وادعوا

مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا
لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِسْمِ اللَّهِ ، وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ
مُسْلِمُونَ (١٤) .

و د أ م ، هنا منقطعة بمعنى بل التي للإضراب ، وهو انتقال المتكلم من
غرض إلى آخر والافتراء : الكذب المتعمد الذي لا توجد أدنى شبهة لقائله .
والمعنى : إن هؤلاء المشركين لم يكتبوا بما طلبوه منك يا محمد ، بل تجاوزوا
ذلك إلى ما هو أشد جرما ، وهو قولهم إنك افتريت القرآن الكريم ،
واخترعته من عند نفسك .

وقوله : د قل فأتوا بمشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من
من دون الله . . . ، أمر من الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - بأن
يرد عليهم بما يحرم أن يستنهم ، ويكتب نفوسهم .

أى : قل لهم يا محمد على سبيل التحدى : إن كان الأمر زعمون من أنى قد
افتريت هذا القرآن ، فأنا واحد منكم وبشر مثلكم ، فأتوا أتم عشر سور
مختلفات من عند أنفسكم ، تشبه ما جئت به فى حسن النظم ، وبراعة الأسلوب ،
وحكمة المعنى ، وادعوا معاوتكم فى بلوغ هذا الأمر كل من تتوسمون فيه
المعاونة غير الله - تعالى - ، لأنه هو - سبحانه - القادر على أن يأتى بمثله .

وجواب الشرط فى قوله - سبحانه - إن كنتم صادقين ، محذوف دل عليه
ما تقدم . أى : إن كنتم صادقين فى زعمكم أنى افتريت هذا القرآن ، فأتوا
أتم عشر سور مثله مفتريات من عند أنفسكم .

والتأمل لآيات القرآن الكريم ، يرى أن الله - تعالى - قد تحدى المشركين
قارة بأن يأتوا بمثله كما فى سورتي الإسراء والطور . فى سورة الإسراء يقول
- سبحانه - د قل لمن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن

لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ،^(١) وفي سورة الطور يقول - سبحانه - : فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ،^(٢)

وتارة تحذاهم بأن يأتوا بعشر سور من مثله كما في هذه السورة ، وتارة تحذاهم بأن يأتوا بسورة واحدة من مثله كما في سورتي البقرة ويونس ، ففي سورة البقرة : وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله^(٣) وفي سورة يونس يقول - سبحانه - : : أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ،^(٤) وقد عجزوا عن الاتيان بمثل أقصر سورة ، وهم من هم في فصاحتهم ، فثبت أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

وقوله - سبحانه - : فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ، وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمين ، إرشاد لهؤلاء المشركين إلى طريق الحق والسعادة لو كانوا يعقلون ، إذ الخطاب موجه إليهم لعلهم يتوبون إلى الرشده . والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الذين تحذيتهم أن يأتوا بعشر سور من مثل القرآن ، وأبحت لهم أن يستعينوا في ذلك بمن شاؤا من البشر ، قل لهم : فإن لم يستجب لدعوتكم من استطعتم بهم في الاتيان بعشر سور من مثل القرآن - وهم لن يستجيبوا لكم قطعا - فاعلموا ، أيها الناس ، أن هذا القرآن إنما أنزل بعلم الله ، وحده ، وبقدرته وحدها ، ولا يقدر على إنزاله بتلك الصورة أحد سواه .

واعلموا - أيضا - : أنه لا إله إلا هو ، - سبحانه - ، فهو الإله الحق ، نذى تعذله الوجوه ، وتخصع له القلوب ، ونتجه إليه النفوس بالعبادة والطاعة .

(٢) الآية ٣٠ .

(٤) الآية ٣٨ .

(١) الآية ٨٨

(٣) الآية ٢٣ .

« فهل أنتم ، أيها المشركون بعدد كل تلك الأدلة الواضحة الدالة على وحدانيه الله ، وعلى أن هذا القرآن من عنده ، مسلمون ، أى : داخلون في الإسلام ، ومتبعون لما جاءكم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

والمراد بالعلم في قوله « فاعلموا » إنما أنزل ... : الاعتقاد الجازم البالغ نهاية اليقين ، أى فأيقنوا أن هذا القرآن ما أنزل إلا ملائمة لعلم الله - تعالى - المحيط بكل شئ .

والفاء في قوله « فهل أنتم مسلمون » للتفريع ، والاستفهام هنا المقصود به الحض على الفعل وعدم تأخير .

أى : فهل أنتم بعد كل هذه الأدلة على صدق ما جاءكم به فبيننا محمد - صلى الله عليه وسلم - تشككون في أن الإسلام هو الدين الحق ؟ إن الشك في ذلك لا يكون من عاقل ، فبادروا إلى الدخول في الإسلام إن كنتم من ذوى العقول التى تعقل ما يقال لها .

ويرى بعض العلماء أن الخطاب في هذه الآية « وجه إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين ، أوليه وحده - صلى الله عليه وسلم - على سبيل التعظيم ، وعليه يكون المعنى :

« فإن لم يستجب لكم - أيها المؤمنون - هؤلاء الذين أعرضوا عن دعوة الحق ، بعد أن ثبت عجزهم عن الإقناع بما تحدتهم به « فاعلموا ، أى فازدادوا علماً و يقيناً وثباتاً ، بأن هذا القرآن ، إنما أنزل بعلم الله ، الذى لا يعز عنه شئ » ، وازدادوا علماً بأنه لا إله إلا هو - سبحانه - مستحق للعبادة والطاعة ، فهل أنتم بعد كل ذلك ، مسلمون ، أى ثابتون على الإسلام ، ملتزمون بكل أوامره وقواهيه .

ومع أننا نرى أن القولين صحيحان من حيث المعنى ، إلا أننا نفضل الرأى الأول القائل بأن الخطاب للمشركين ، لأن سياق الآيات السابقة في شأنهم ، فلأن يكون الخطاب لهم هنا أولى .

ثم بين - سبحانه - سوء نصير الذين لا يريدون بأقوالهم وأعمالهم وجه الله - تعالى - فقال :

« مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَبِسُوا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَبَّحُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) .

أى : من كان يريد ، بأقواله الحسنة وبأعماله الطيبة على حسب الظاهر ، الحصول على (الحياة الدنيا وزينتها) من مال وجاه ومنصب وغير ذلك من المتع الدنيوية ، بدون التفات إلى ما يقربه من ثواب الآخرة .

من كانوا يريدون ذلك (نواف إليهم أعمالهم فيها) أى : نوصل إليهم - بإرادتنا ومشيتنا - ثمار جهودهم وأعمالهم في هذه الدنيا .

والنعبير بكان في قوله (من كان يريد . . .) يفيد أنهم مستمرون على إرادة الدنيا بأعمالهم ، بدون تطلع إلى خير الآخرة .

وعدى الفعل (نواف) بآلى ، مع أنه يتعدى بنفسه ، لتضمنيته معنى نوصل . وقوله - سبحانه - (وهم فيها لا يبخسون) تذييل قصده به تأكيد حاسبه ، وتبيين مظهر من مظاهر عدل الله - تعالى - مع عباده في دنياهم .

والبخس : نقص الحق ظلماً . يقال : بخس فلان فلاناً حقه إذا ظلمه ونقصه .

أى : وهم في هذه الدنيا لا ينقصون شيئاً من نتائج جهودهم وأعمالهم ، حتى ولو كانت جهوداً لا لإخلاص معاً ولا لإيمان .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم في الآخرة فقال : أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون .

أى : أولئك الذين أرادوا بأقوالهم وأعمالهم الحياة الدنيا وزينتها ، لبس

هم في الآخرة إلا النار، لأنهم استوفوا ما تقتضيه صور أعمالهم المحسنة في الدنيا بقيت عليهم أوزار نياتهم السيئة في الآخرة

« وحبط ما صنعوا فيها ، أي : وفسد ما صنعوه في الدنيا من أعمال الخير ، لأنهم لم يقصدوا بها وجه الله - تعالى - وإنما قصدوا بها الرياء رضى الناس ... »

وقوله « وباطل ما كانوا يعملون ، أي : وباطل في نفسه ما كانوا يعملونه في الدنيا من أعمال ظاهرها البر وتصلاحها ، لأنه لا ثمرة له ولا ثواب في الآخرة لأن الأعمال بالنيات ، ونيات هؤلاء المرأئين ، لم تكن تلتفت إلى ثواب الله ، إنما كانت متجهة انماها كلياً إلى الحياة الدنيا وزينتها ، إلى إرضاء المخلوق لا الخالق . »

وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : « من كان يريد حرث الآخرة زد له في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا فؤته منها وما له في الآخرة من نصيب » (١) .

وقوله - تعالى - : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً . ومن أورد الآخر وسمى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكوراً . كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، والآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً » (٢) .

هذا ، ومن العلماء من يرى أن هاتين الآيتين مسوقتان في شأن الكفار ومن على شاكلتهم من الضال كاليهود والنصارى والمنافقين ... لأن قوله - تعالى - أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ، لا يليق إلا بهم .

والذى نراه أن هاتين الآيتين تتناولان الكفار ومن على شاكلتهم تدارلا أوليا ، ولكن هذا لا يمنع من أنهما يندرج تحت وعيدهما كل من قصد بأفعاله وأعماله الحياة الدنيا وزينتها ، ونبتذ كل معانى الإخلاص والطاعة لله رب العالمين .

ومما يشهد لذلك أن هناك أحاديث كثيرة ، حذرت من الرياء ، وتوعدت مقترفه بأشد أنواع العقوبات ، ومن هذه الأحاديث ما رواه أبو داود عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا ، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة - أى رائحتها - (١) .

وصفوة القول : أن الآيتين الكريمتين نسوقان سنة من سنن الله مع عباده فى هذه الدنيا ، وهى أن الله - تعالى - لا ينقص الناس شيئا من ثمار جهودهم وأعمالهم فى هذه الدنيا ، إلا أن هذه الجهود وتلك الأعمال التى ظاهر الصلاح ، إن المقصود بها الحياة الدنيا وزينتها ، وجدوا نتائجها وثمارها فى الدنيا فحسب . وإن كان المقصود بها رضا الله - تعالى - وثواب الآخرة ، وجدوا ثمارها وفتائجها الحسنة يوم القيامة ، بجانب تمتعهم بما أحله الله لهم فى الدنيا من طيبات .

وذلك لأن العمل للحياة الأخرى - فى شريعة الإسلام - ، لا يحول بين العمل النافع فى الحياة الدنيا ، ولا ينقص شيئا من آثاره وثماره ، بل إنه يزكيه وينميه ويباركه . . . ورحم الله الفائت : ليس أحديهم عمل حسنة إلا وفى ثوابها ، فإن كان مسلما مخلصا وفى ثوابها فى الدنيا والآخرة ، وإن كان كافرا وفى ثوابها فى الدنيا .

• • •

وبعد أن بين - سبحانه - حال الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها ،

(١) من كتاب رياض الصالحين للإمام النووي من باب تحريم الرياء ص ٦١٩

أتبع ذلك ببيان حال الذين يريدون الحق والصواب فيها يفعلون ويتركون فقال - تعالى - :

« أَفَنُكَانَ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ، وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً، أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَسَكَنَ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧) » .

قال صاحب المنار ما ملخصه : البينة ما تبين به الحق من كل شيء بحسبه كالبرهان في العقليات والنصوص في النقليات ، والحواري في الإلهيات ، والتجارب في الحسيات ، والشهادات في القضائيات . والاستقراء في إثبات الكلبيات ، وقد نطق القرآن بأن الرسل قد جاءوا أقوامهم بالبينات وأن كل نبي منهم كان محتج على قومه بأنه على بينة من ربه وأنه جاءه ببينة من ربه ، كما ترى في قصصهم في هذه السورة وفي غيرها (١) .

وقوله : « وَيَتْلُوهُ » . من التلو ، أي الاقتفاء والاتباع . يقال : تلا فلان فلانا إذا كان تابعا له ومقتفيا أثره . والمراد به هنا : التأيد والتقوية .

وللمفسرين أقوال متعددة في المقصود بقوله - تعالى - : « أَفَنُكَانَ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّهِ » ، وبقوله - سبحانه - « وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ » .

وفي مرجع الضمان في قوله « رَبِّهِ » - ويتلوه - ومنه . . .

وأقرب هذه الأقوال إلى الصواب أن يكون المقصود بقوله - تعالى - : « أَفَنُكَانَ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّهِ » ، الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأتباعه المؤمنون

وبقوله - تعالى - « وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ » ، القرآن الكريم الذي أنزله الله -

تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - ليكون معجزة له شاهدة بصدقه .

والضمير في قوله « من ربه » ، يعود إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ،
وفي قوله « ويتلوه » ، يعود إلى القرآن الكريم ، وفي قوله « منه » ، يعود إلى الله
- تعالى - .

وعلى هذا القول يكون المعنى : أفن كان على حجة واضحة من عند ربه تهيئه
إلى الحق والصواب في كل أقواله وأفعاله ، وهو هذا الرسول الكريم وأتباعه
ويؤيده ويقربه في دعوته شاهد من ربه هو هذا القرآن الكريم المعجز لسائر
البشر

أفمن كان شأنه كمن ليس كذلك ؟

أو أفمن كان هذا شأنه كمن استحوذ عليه الشيطان فجعله لا يريد إلا الحياة
الدنيا وزينتها ؟ كلا إنها لا يستويان .

وشهادة القرآن الكريم بصدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - في دعوته ،
تجلى في إعجازه ، فقد تحدى النبي - صلى الله عليه وسلم - أعداءه أن يأتوا بسورة
من مثله فيجوزوا مع فصاحتهم وبلاغتهم ، فثبت بذلك أن هذا القرآن من عند
الله - تعالى - .

ولما جعلنا هذا القول أقرب الأقوال إلى الصواب ، لأنه هو الذي ينسق
مع ما يفيد ظاهراً الآية الكريمة ، ولأننا عندما نقرأ هذه السورة الكريمة
وغيرها ، نجد أن الرسل الكرام كثيرًا ما يؤكدون لأقوامهم - أنهم - أي الرسل -
على بينة من ربهم .

فهذا نوح - عليه السلام - يقول لقومه : « يا قوم أرأيتم إن كنت على
بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها
كارهون » .

وهذا صالح - عليه السلام - يقول لقومه : « يا قوم أرأيتم إن كنت على
بينة من ربي وآتاني منه رحمة ، فمن ينصرني من الله إن عصيته » ... ،

وهذا شعيب - عليه السلام - يقول لقومه : يا قوم أرأيتم إن كنت على
بينة من ربي ، ورزقني منه رزقا حسنا ... ،

وهكذا نجد كل نبي يؤكد لقومه أنه جاءهم على بينة من ربه ، وما دام الأمر
كذلك ، فسيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هو أفضل من جاء قومه على
بينة من ربه ، والمؤمنون به - صلى الله عليه وسلم - يقتدون به في ذلك .

ويرى بعضهم أن المراد بالبينة القرآن الكريم ، وبالشاهد إعجازه ،
وبالموصول مؤمنو أهل الكتاب ، وأن الضميرين في قوله « ويتلوه » ومنه ،
يعودان إلى القوان الكريم وإعجازه .

وعلى هذا الرأي يكون المعنى : أفن كان على برهان من ربه يدل على حقيقة
الإسلام وهو القرآن ، ويؤيده ويقويه - أي القرآن - شاهد منه على كونه من
عند الله وهذا الشاهد هو إعجازه للبشر عن أن يأتوا بسورة من مثله .

قال الألوسي ما ملخصه : قوله : « أفن كان على بينة من ربه » : أصل البينة
الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة ، وتطلق على الدلائل مطلقا . والتنوين
فيها للتعظيم ، أي : بينة عظيمة الشأن والمراد بها القرآن ، وباعتبار ذلك أو
البرهان جاء الضمير الراجع إليها في قوله « ويتلوه » ، مذكرا ، وقوله « ويتلوه »
أي يتبعه « شاهد » عظيم يشهد بكونه من عند الله ، وهو إعجازه ...

ومعنى كون ذلك الشاهد تابعا له ، أنه وصف له لا ينفك عنه ... وكذا
الضمير في « منه » - يعود إلى القرآن - ، وهو متعلق بمحذوف وقع صفته
لشاهد ، ومعنى كونه منه أنه غير خارج عنه ... (١)

ومن المفسرين من يرى أن المراد بالبينة القرآن الكريم - أيضا - ويرى
أن المراد بالشاهد جبريل - عليه السلام - وأن قوله « سبحانه » « ويتلوه »
من التلاوة بمعنى القراءة لأن التلو بمعنى الاتباع .

وعلى هذا الرأي يكون المعنى : أفن كان على برهان جلي من ربه يدل على

حقيقة الإسلام وهو القرآن ، ويتلو هذا القرآن على الرسول - صلى الله عليه وسلم - شاهد من الله - تعالى - هو جبريل - عليه السلام -

فالضمير في « ويتلوه » على هذا الرأى يعود إلى جبريل - عليه السلام - وفي « منه » يعود على الله - تعالى - .

وهناك أقوال أخرى في تفسير الآية الكريمة ، رأينا من الخير أن نضرب عنها صفحا لضعفها (١) .

وقوله « ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة » دليل آخر على صدق النبوة - صلى الله عليه وسلم - في دعوته . وهو معطوف على شاهد ، والضمير في قول « ومن قبله ... » يعود على شاهد - أيضا - .

وقوله « إماما ورحمة » منصوبان على الحالية من قوله « كتاب » .

والمعنى : ومن قبل هذا الشاهد : صلى الله عليه وسلم - صلى الله عليه وسلم وهو القرآن الكريم ، أنزل الله الله - تعالى - على موسى كتابه التوراة ، مشتملا على صفات الرسول - صلى الله عليه وسلم - و « إماما » يؤتم به في أمور الدين والدنيا ، و « رحمة » ابني إسرائيل من العذاب إذا ما آمنوا به واتبعوا تعاليمه قال الشوكاني : وإنما قدم الشاهد على كتاب موسى مع كونه متأخرا ، الوجود ، لسكونه - أي الشاهد بمعنى المعجز - وصفا لازما غير مفارق ، فكأن أغرق في الوصفية من كتاب موسى .

وهي شهادة كتاب موسى وهو التوراة ، أنه بشر به محمد - صلى الله عليه وسلم - وأخير بأنه رسول الله - تعالى - ، (٢) .

ولسم الإشارة في قوله « أولئك يؤمنون به » يعود إلى المعصوفين بأنه على بيته من ربهم وعم النبي - صلى الله عليه وسلم - وأتباعه المؤمنون الصادقون

(١) راجع تفسير الآلوسی ج ١٢ ص ٢٥ .

(٢) تفسير فتح القدير للشوكاني ج ٢ ص ٤٨٨ .

أى : أولئك المرصوفون بأنهم على يانة من ربهم ، يؤمنون بأن الإسلام
الدين الحق ، وبأن رسوله - صلى الله عليه وسلم - رسول صدق ، وبأن
أن من عند الله - تعالى - وحده .

فالضمير فى قوله « به » ، يعود على كل ما جاء به الرسول - صلى الله عليه
لم - من عند ربه ، ويدخل فى ذلك دخولا أوليا القرآن الكريم .
وقوله : « ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده » ، بيان اسوء عاقبة
أفريق بما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد بيان حسن عاقبة
منين به .

الأحزاب جمع حزب وهم الذين تحزبوا وتجمعوا من أهل مكة وغيرهم
به الرسول - صلى الله عليه وسلم - ودعوته .
أى : ومن يكفر بهذا القرآن وبما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم -
هدايات ، فإن نار جهنم هى الممكان الذى ينتظره ، وينتظر كل متحزب
دعوته - صلى الله عليه وسلم - .

وفى جعل النار موعدا لهذا الكافر بالقرآن ، إشعار بأن فيها مالا يحيط به
نف من ألوان العذاب ، الذى يجعله لا يموت فيها ولا يحيا .
ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالحض على النظر الصحيح الذى يودى
اليقين بأن ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو الحق الذى لا يشوبه
فقال - تعالى - : « فلا تلك فى مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر
لا يؤمنون » .

أى : فلا تلك - أيها العاقل - فى شك من أن هذا القرآن من عند الله ،
أن ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو الصدق ، بل عليك أن
د اعتقادا جازما فى صحة ذلك ، لأن ما جاء به - صلى الله عليه وسلم - هو
، « ثابت من عند ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بذلك » ، لانطماس
نهم ، وتقليدهم لآبائهم ، ولإيثارهم الفى على الرشيد .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد ميزت بين من كان على الحق ومن كان على الباطل ، وسأقت حشودا من الأدلة المدالة على صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - في دعوته ، وعلى صحة ما عليه أتباعه ، وأمرتهم بالثبات على الحق الذي آمنوا به ، وتوعدت المتحزبين ضد دعوة الإسلام بنار جهنم التي هي بنس القرار .

هذا ، وهذه الآية الكريمة هي من الآيات التي قيل بأنها مدنية ، وبمراجعتنا لتفسيرها لم نجد ما يؤكد ذلك ، بل الذي نراه أن السورة كلها مكية كما سبق أن أشرنا إلى ذلك في المقدمة .

ثم وصف - سبحانه - الكافرين بالإسلام ببضعة عشر وصفا . وبين سوء مصيرهم ، كما بين حسن عاقبة المؤمنين ، وضرب مثلا لحال الفريقين فقال - تعالى - .

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، أُولَئِكَ يِعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ، أَلَا لعنةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصْدَوْنَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ، وَمِمَّنْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ بِضَاعُوا لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ (٢٠) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَاجِرُمْ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخِسُونَ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مِثْلُ الْذَرِيْقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مِثْلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤) » .

قال الإمام الرازي : اعلم أن الكفار كانت لهم عادات كثيرة ، وطرق مختلفة ، فمنها شدة حرصهم على الدنيا ، ورغبتهم في تحصيلها ، وقد أبطل الله - تعالى - هذه الطريقه بقوله : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ... إلى آخر الآية . ومنها أنهم كانوا يشكرون نبوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويقدمون في معجزاته ، وقد أبطل الله - تعالى - ذلك بقوله : « أفن كان على بينة من ربه ... » .

ومنها أنهم كانوا يزعمون في الأصنام أنها شفعاؤهم عند الله ، وقد أبطل الله - تعالى - ذلك بهذه الآيات وذلك لأن هذا الكلام افتراء على الله ... » (١) .
وجملة : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ... » ، معطوفة على قوله - تعالى - « قبل ذلك » ، ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده .

والاستفهام للإنكار والنفي ، والتقدير : لا أحد أشد ظلما ممن تعمد الكذب على الله - تعالى - بأن زعم بأن الأصنام تشفع لها بديها عنده ، أو زعم بأن الملائكة بنات الله ، أو أن هذا القرآن ليس من عنده - سبحانه - .

وقوله : « أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة على الظالمين » بيان لما يقال لهؤلاء الظالمين على سبيل التشهير والتوبيخ يوم القيامة والأشهاد : جمع شهيد كشریف وأشراف . أو جمع أهد بمعنى حاضر كصاحب وأصحاب والمراد بهم - على الراجح - جميع أهل الموقف من الملائكة الذين كانوا يسجلون عليهم أفعالهم وأعمالهم ، ومن الأنبياء والمؤمنين .

والمعنى : أولئك الموصوفون بافتراء الكذب على الله تعالى - يعرضون يوم الحساب - على ربهم ، ومالك أمرهم ، كما يعرض المجرم للقصاص منه ، ولفضيحته أمام الناس .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٧ ص ٢٠٣ طبعة عبد الرحمن محمد .

« ويقرون الأَشهاد ، الذين يشهدون عليهم بأنهم قد افترؤا الكذب على الله
« هؤلاء ، المجرمون هم » الذين كذبوا على ربهم ، بأن نسبوا إليه ما هو
منزه عنه .

« ألا لعنة الله على الظالمين » الذين وضعوا الأمور في غير مواضعها ،
فاوردوا أنفسهم المبالك .

وجيء باسم الإشارة « هؤلاء ، زيادة في التشنيع عليهم ، وفي تمييزهم عن غيرهم
وصدّيت جملة « ألا لعنة الله على الظالمين ، بأداة الاستفتاح « ألا ، لتأكيد
الدعاء عليهم بالطرد والإبعاد عن رحمة الله - تعالى - بسبب افتراءهم الكذب .

والظاهر أن هذه الجملة من كلام الأَشهاد . ويؤيد ذلك ما أخرجه الشيخان
عن صفوان بن محرز قال : كنت آخذا بيد ابن عمر ، إذ عرض له رجل فقال :
كيف سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول في النجوى يوم القيامة ؟
قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : إن الله - عز وجل -
يدني المؤمن فيضع عليه كنفه - أي ستره وعرضه - ويستتره من الناس ويقرره
ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ،
ورأى في نفسه أنه قد هلك قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وإني أغفرها
لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأَشهاد
هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ، (١) .

ويجوز أن تكون هذه الجملة من كلام الله - تعالى - على سبيل الاستئناف
بعد أن قال الأَشهاد « هؤلاء الذين كذبوا على ربهم » .

ثم بين - سبحانه - جانباً آخر من أفعالهم الشنيعة فقال : « الذين
يصدون عن سبيل الله ويغفونها عوجاً ... »

« و يصدون ، من يصد بمعنى صرف النير عن الشيء ومنعه منه . يقال صد
يصد صدوداً وصدداً .

و « سبيل الله » طريقه الموصلة إلى رضائه . والمراد بها ملة الإسلام .
و « يضرها عوجا » أى يطلسون لها العوج . يقال . بنيت لفلان كذا إذا طلبته له .

والعوج - بكسر العين - الميل والزيج فى الدين والقول والعمل . وكل ما خرج عن طريق الهدى إلى طريق الضلال فهو عوج .

والعوج - بفتح العين - يكون فى المحسوسات كالميل فى الخاطئ والرمح ، وما يشبههما . أى أن مكسور العين يكون فى المعانى ومفتوحها يكون فى المحسوس والمعنى : ألا لعنة الله وخزيه على الظالمين ، الذين من صفاتهم أنهم لا يكتفون بانصرافهم عن الحق ، بل يحاولون صرف غيرهم ويطلبون لملة الإسلام العوج ويصفونها بذلك تنفيرا للناس منها . وقوله « عوجا » مفعول ثان ليبغون ، أو حال من سبيل الله .

وقوله « وهم بالآخرة هم كافرون » ، بيان لعقيدتهم الباطلة فى شأن البعث والحساب .

أى : وهم بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب كافرون .
وكرر الضمير « هم » لتأكيد كفرهم ، والإشارة إلى أنهم بلغوا فيه مبلغا لم يبلغه أحد سواهم ، حتى لكان كفر غيرهم يسير بالنسبة لكفرهم .
ثم بين - سبحانه - أنه كان قادرا على تعذيبهم فى الدنيا قبل الآخرة ، ولكنه أقر عذابهم لإملاء لهم ، فقال : « أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ... »
وقوله : معجزين من الإعجاز بمعنى عدم المقدرة على الشئ .

أى : أولئك الذين افترؤا على الله الكذب ، لم يكن - سبحانه - عاجزاً عن إنزال العذاب الشديد بهم فى الدنيا . وما كان لهم من غيرهم من نصرهم ينصرونهم من بأسه لو أراد إهلاكهم .

قال الإمام الرازى : قال الواحدى : معنى الإعجاز المنع من تحصيل المراد يقال أعجزنى فلان ، أى : منعنى عن مرادى ...

والمقصود أن قوله : أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض ، دل على أنه لا قدرة لهم على الفرار .

وقوله : وما كان لهم من دون الله من أولياء ، دل على أن أحدا لا يقدر على تخليصهم من عذابه . - جمع - سبحانه - بين ما يرجع إليهم وبين ما يرجع إلى غيرهم ، ووضح بذلك انقطاع حبلهم في الخلاص من عذاب الدنيا والآخرة ، (١) .

وقوله : يضاعف لهم العذاب ، جملة مستأنفة لبيان أن من حكمة تأخير العذاب عنهم في الدنيا ، مضاعفة العذاب لهم في الآخرة .

وقوله : ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ، تصوير يبلغ لاستحواد الشيطان عليهم .

أي أن هؤلاء المجرمين بلغ بهم الجهل والعناد والجحود ، أنهم ما كانوا يستطيعون السماع للحق الذي حاهم من ربهم لثقله على نفوسهم الفاسدة ، وما كانوا يبصرون المعجزات الدالة على صدق نبهم - صلى الله عليه وسلم - .

فليس المراد في السماع والإبصار الحسين عنهم ، وإنما المراد أنهم لا انطاس بصائرهم صاروا كمن لا يسمع ولا يرى .

ثم أكد - سبحانه - سوء مصيرهم فقال : أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون .

أي : أولئك الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، هم الذين خسروا أنفسهم وأوردوها المهالك بسبب تعمد الكذب على الله ، وضل عنهم ، أي : وغاب عنهم ما كانوا يفترونه في الدنيا من اعتقادات باطلة ، وإدعاءات فاسدة .

وقوله : لا جرم أنهم في الآخرة هم الآخسرون ، زيادة في تأكيد خسرتهم

وكلمة ، لا جرم ، وردت في القرآن الكريم في خمسة مواضع . وفي كل موضع جاءت متلوة بأ : واسمها .

وجم . والنحاة على أن هذه الكلمة مركبة من ، لا ، و ، جرم ، تركيب خمسة عشر . ومعناها بعد هذا التركيب معنى الفعل حق أو ثبت ، والجملة بعدها هي الفاعل لهذا الفعل .

أى : وثبت كونهم في الآخرة هم الآخرون .
ومن النحاة من يرى أن ، لا ، تافيه للجنس ، و ، جرم ، اسمها ، وما بعدها خيرها .

والمعنى ، لا محالة ولا شك في أنهم في الآخرة هم الآخرون .
ثم بين — سبحانه — حسن عاقبة المؤمنين بعد بيان سوء عاقبة الكافرين فقال — تعالى — : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » .

قال الجمل : والاختبات في اللغة هو الخشوع والخضوع وطمانينة القلب . ولفظ الاختبات يتعدى إِبَالِي وباللام . فإذا قلت أخبت فلان إلى كذا فعناه اطمأن إليه . وإذا قلت أخبت له فعناه : خضع وخضع له . فقوله : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، إشارة إلى جميع أعمال الجوارح . وقوله : « وأخبتوا إلى ربهم ، إشارة إلى أعمال القلوب ، وهي الخشوع والخضوع لله — تعالى — » (١) .

والمعنى : إن الذين آمنوا بالله — تعالى — إيماناً حقاً ، وعملوا الأعمال الصالحات التي ترضيه — سبحانه — واطمأنوا إلى قضاء ربهم وخضعوا له ، أولئك الموصوفون بذلك ، هم أصحاب الجنة وهم الخالدون فيها خلوداً أبدياً وهم الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه .

هم ضرب - سبحانه - مثلاً لفريق الكافرين ولفريق المؤمنين فقال :
مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا
تذكرون . .

وقوله : : مثل الفريقين . . . ، أى : حالهم وصفتهم .
وأصل المثل بمعنى المثل . والمثل : النظير والشبيه ، ثم أطلق على القول
سائر المعروف للمثالة مضريه - وهو الذى يضرب منه - ، لمورده - أى
ذى ورد فيه أولاً .

ولا يكون إلا فيما فيه غرابة . ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة إذا
كان لها شأن عجيـب - وفيها غرابة .

ولما تضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفى ، وتقريب المعقول من
المحسوس ، وعرض الغائب فى صورة الشاهد ، فيكون المعنى الذى ضرب له
لمثل أوقع فى القلوب ، وأثبت فى النفوس .

والمعنى : حال الفريقين المذكورين قبل ذلك وهما الكافرون والمؤمنون
كحال الضدين المختلفين كل الاختلاف .

أما الكافرين فحالهم وصفتهم كحال وصفة من جمع بين العمى والصمم .
لأنهم مع كونهم يرون ويسمعون ، لكنهم لم يذوقوا - وبذلك ، فصاروا
كالفاقد لهما .

وأما المؤمنون فحالهم وصفتهم كحال وصفة من جمع بين البصر السليم ،
السمع الواعى ، لأنهم اقتنعوا بما رأوا من دلائل تدل على وحدانية الله
قدرته ، وبما سمعوا من توجيهات تدل على صحة تعاليم الإسلام .

والمقصود من هذا التمثيل . تنبيه الكافرين إلى ما هم عليه من ضلال
جهالة ، لهم بهذا التنبيه يتداركون أمرهم . فيدخلون فى دين الإسلام ،
تثبيت المؤمنين على ما هم عليه من حق ، وبذلك يزدادون إيماناً على إيمانهم .

والاستفهام في قوله : « هل يستويان مثلا » ، لانكار والنص ، « هل هل يستوي في الصفة والحال » ، كان ذا سمع وبصر بين فقدما ؟ كلا إنما لا يستويان حتى عند أقل العقلاء عقلا .

وقوله : « أفلا تذكرون » ، حض على التذكر والتدبر والتفكير .
أى : أنشكون في عدم استواء الفريقين ؟ لا إن الشك في عدم استوائهما لا يليق بعقل ، وإنما اللانقي به هو اعتقاد تباين صفتيهما ، والدخول في صفوف المؤمنين الذين عملوا الأعمال الصالحات وأحسنوا إلى ربهم .

وبذلك نرى أن هذه الآيات السكرية قد بينت حال الكافرين ، وذكرت من أوصائهم أربعة عشر وصفا ، أولها : إفتراء الكذب... وآخرها : الخسران في الآخرة . كما بينت حال المؤمنين وبشرتهم بالخلود في الجنة ، ثم ضربت مثلا لكل فريق وشبهت حاله بما يناسبه من صفات . .

وفي ذلك ما فيه من الهداية إلى الطريق المستقيم ، لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله ووحدايته ، وعن إعجاز القرآن الكريم ، وعن حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة المكذبين ، سأت السورة السكرية بترتيب حكيم ، قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم ، وقد استغرق هذا القصص معظم الآيات الباقية فيها ، فقد حدثنا عن قصة نوح مع قومه ، وعن قصة هود مع قومه ، وعن قصة صالح مع قومه ، وعن قصة لوط مع قومه ، وعن قصة شعيب مع قومه ، كما تحدثت عن قصة إبراهيم مع رسل الله الذين جاءوا بالبشرى ، وعن جانب من قصة موسى مع فرعون .

قال الإمام الرازي : اعلم أنه - تعالى - لما ذكر في تقرير المبدأ والمعاد دلائل ظاهرة ، وبينات فاهرة ، وبراهين باهرة ، أتبعها بذكر قصص الأنبياء وفيه فوائد :

أحدها : التنبيه على أن إعراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبيانات

وقوله : « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه . . . » جراب لقسم محذوف . أى :
وانته لقد أرسلنا نوحا إلى قومه . والدليل على هذا القسم وجود لامه في بدء الجملة .
وافتشحت القصة بصيغة القسم ، لأن المخاطبين بها لما لم يحذروا ما نزل بقوم
نوح بسبب كفرهم ، نزلوا منزلة المنكر لرسالته .

وينتمى نسب نوح - عليه السلام - إلى شيث بن آدم - عليه السلام - .
وقد ذكر نوح في القرآن في ثلاث وأربعين موضعا .

وقوم الرجل : هم أقرباؤه الذين يجتمعون معه في جد واحد . وقد يقيم
الرجل بين الأجناب فيسميهم قومه مجازا للمجاورة .
وكان قوم نوح يعبدون الأصنام . فأرسل الله إليهم نوحا ليدلهم على
طريق الرشاد .

قل ابن كثير : قال ابن عباس وغير واحد من علماء التفسير : كان أول
ما عبدت الأصنام أن قوما صالحين ماتوا . فبنى قومهم عليهم مساجد ، وصوروا
صور أولئك الصالحين فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتصبروا بهم . فلما طال
الزمان جعلوا أجسادا على تلك الصور ، فلما نمدى الزمان عبدوا تلك الأصنام
وسموها بأسماء أولئك الصالحين : ودا وسواعا ويغوث ويهويا ونسرا . فلما
تفاقم الأمر بعث الله - تعالى - رسوله نوحا فأمرهم بعبادة الله وحده ، (١) .

وقوله ، « إني لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا إلا الله . . . » بيان للوظيفة
التي من أجلها أرسل الله - تعالى - نوحا إلى قومه .
قال الشوكاني : قرأ ابن كثير وأبر عمرو والكسائي يفتح الهمزة في « إني »
على تقدير حرف الجر . أى : أرسلناه بأنى . أى : أرسلناه متلبسا بذلك الكلام
وهو « إني لكم نذير مبين » . وقرأ الباقون بالمكسر على إرادة القول . أى :
أرسلناه قائلا لهم : إني لكم نذير مبين ، (٢) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٢٢

(٢) تفسير فتح القدير للشوكاني ج ٢ ص ٩٢

ونذير من الإنذار وهو إخبار معه تخويف . .

ومبين : من الإبانة بمعنى التوضيح والإظهار . .

أى : أرسلناه إلى قومه فقال لهم يا قوم : لئى لىكم محذر تحذيرا واضحا من موجبات العذاب ، التى تتمثل فى عبادتكم لغير الله - تعالى . .

واقصر على الإنذار ، لأنهم لم يعملوا بما بشرهم به ، وهو الفوز برضا الله - تعالى -- إذا ما أخلصوا له العبادة والطاعة .

وجملة : أن لا تعبدوا إلا الله ، بدل من قوله ولئى لىكم نذير مبين ، أى : أرسلناه بأن لا تعبدوا إلا الله .

وقوله : ولئى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ، جملة تعاليمية ، تبين حرص نوح الشديد على مصلحة قومه وشفقتهم .

أى لئى أحذركم من عبادة غير الله ، لأن هذه العبادة ستؤدى بىكم إلى وقوع العذاب الأليم عليكم ، وما حملنى على هذا التحذير الواضح إلا خوفى عليكم ، وشفقتى بىكم ، فأنا متكم وأقم منى بمقتضى القراة والنسب .

ووصف اليوم بالأليم على سبيل المجاز العقلى ، وهو أبلغ من أن يوصف العذاب بالأليم ، لأن شدة العذاب لما بلغت الغاية والنهاية فى ذلك ؛ جعل الوقت الذى تقع فيه وقتا أليما أى مؤلما .

ثم حكى - سبحانه - ما رد به قوم نوح عليه فقال : وقال الملائ الذين كفروا من قومه ، ما نراك إلا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الراى ، وما نرى لىكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين . .

والمراد بالملائ : أصحاب الجاه والغنى من قوم قوح . وهذا اللفظ اسم جمع لا واحده من لفظه كرهط وهو - كما يقول الألوسى - : مأخوذ من قولهم فلان مليء بكذا ؛ إذا كان قادرا عليه . . . أو لأنهم متاثرون أى متظاهرون متعاونون ، أو لأنهم يملأون القلوب والعيون

ووصفهم بالكفر ، لتسجيل ذلك عليهم من أول الأمر زيادة في ذنبهم .
 أى : بعد هذا النصيح الحكيم الذى وجهه روح - عليه السلام - لقومه ،
 رد عليه أغنياؤهم وسادتهم بقولهم : ما نراك ، يا نوح إلا بشرا مث لنا ، أى :
 إلا إنسانا مث لنا ، ليست فيك منزلة تجعلك مختصا بالنبوة دوننا

فهم - لجهلهم وغبائهم - توهموا أن النبوة لا تجتمع البشرية ، مع أن
 الحكمة تقتضى أن يكون الرسول بشرا من جنس المرسل إليهم ، حتى تتم فائدة
 التفاهم معه ، والاعتداه به فى أخلاقه وسلوكه .

وقد حكى القرآن قولهم هذا فى أكثر من موضع ، ومن ذلك قوله - تعالى -
 وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة
 الدنيا ، ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ، ويشرب مما تشربون
 ولئن أطعتم بشرا مثلكم لافكم إذا لحاسرون (١) .

ثم إنهم فى التعليل لعدم إتباع نبيهم لم يكتفوا بقولهم ما نراك
 إلا بشر مث لنا ، بل أضافوا إلى ذلك قولهم : وما نراك اتبعك إلا الذين
 هم أرذلنا بآدى الرأى ، ومرادهم بقولهم : أرذلنا أى فقرنا ونا ومن
 لا وزن لهم فىنا .

قال الجبل : ولفظ أرذلنا ، فيه وجهان : أحدهما أنه جمع الجمع فهو
 جمع أرذل - بضم الدال - جمع رذل - بسكونها - نحو كلب وأكلب
 وأكالب

ثانيهما : أنه جمع مفرد وهو أرذل كأكبر وأكابر والأرذل هو
 المرغوب عنه لرداءته ، (٢)

(١) سورة المؤمنون الآية ٢٣ ، ٢٤

(٢) حاشية الجبل على الجلالين ج ٢ ص ٢٩١

ومرادهم بقولهم : يادى الرأى ، أى : أوله من البدء . يقال : بدأ يبدأ إذا فعل الشيء . أولا ، وعليه تكون الياء مبدلة من الهزة لانتكسار ما قبلها ، وبقيده قراءة أبى عمرو : يادى الرأى .

أى : وما نراك اتبعك يا نوح إلا الذين هم أقلنا شأنا ، وأحقنا حالا ، من غير أن يتثبتوا من حقيقة أمرك ، ولو تثبتوا وتفتكروا ما اتبعوك ، ويصح أن يكون مرادهم بقولهم : يادى الرأى ، أى اتبعوك ظاهرا لا باطنا ، ويكون لفظ : يادى ، من البدء بمعنى الظهور . يقال : بدأ الشيء يبدو بدواً ومبدواً وبداء أى ظهر وعليه يكون المعنى : وما نراك إتبعك يا نوح إلا الذين هم أهوننا أمرا ، ومع ذلك فإن إتباعهم لك إنما هو فى ظاهر أمرهم ، أما بواطنهم فهى قدين بعقيدتنا .

وشبيه هذه الجملة قوله - تعالى - : قالوا أنؤمن لك وإتبعك الأرذلون^(١) قال صاحب الكشاف : وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم فى الآسى . باب الدنيوية ، لأنهم أى المأث من قوم نوح - كانوا جهالا ما كانوا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا ، فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام ، يعتقدون ذلك ، ويننون عليه إكرامهم وإعانتهم ، ولقد زل عنهم أن التقدم فى الدنيا - مع ترك الآخرة - لا يقرب أحدا من الله وإنما يبعده ، ولا يرفعه بل يضعه ، فضلا عن أن يجعله سببا فى الاختيار للنسوة والتأهيل لها^(٢)

نم أضافوا إلى مزاعمهم السابقة زعما جديدا فقالوا : وما نرى لكم علينا من فضل بل نظة لكم كاذبين ،

والفضل : الزيادة فى الشرف والغنى وغيرهما مما يتميز به الإنسان عن غيره .

(١) سورة الشعراء الآية ١١١

(٢) تفسير الكشاف ٢ ص ٢٦٥

والمراد به هنا : آثاره التي تدل عليه .

أى : أنت يا نوح لست بشرا مثلنا ، وأتباعك هم أحقرنا شأنا ، وما نرى لك ولتبعيك شيئا من الزيادة علينا لافى العقل ولا غيره ، بل انما نعتقد أنفسكم كاذبون فى دعواكم أنكم على الحق ، لأن الحق فى نظرنا هو فى عبادة هذه الأصنام التي عبدها من قبلنا آباؤنا .

وهكذا نرى أن الملائ من قوم نوح - عليه السلام - قد عللوا كفرهم بما جاء به بثلاث علل ، أولها : أنه بشر مثلهم ، وثانيها : أن أتباعه من فقرائهم وثالثها : أنه لا مزية له ولا تبعاعه عليهم ...

وهي كلها علل باطلة ، تدل على جهلهم ، وانطمار بصيرتهم ، ويدل على ذلك ، رد نوح - عليه السلام - الذي حكاها القرآن فى قوله - تعالى - :

« قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ، وآتاني رحمة من عنده ، فطميت عليكم أن نلزمكموها وأنتم لها كارهون (٢٨) ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله ، وما أنا بطاريد الذين آمنوا إنهم ملاؤوربهم ولسكنى أراكم قوما تجهلون (٢٩) ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون (٣٠) ولا أقول لكم هندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ، ولا أقول للذين زردرى أعينكم لن يؤتيتهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم إني إذا لمن الظالمين (٣١) » .

أى : قال نوح - عليه السلام - فى رده على الملائ الذين كفروا من قومه : « يا قوم ، أى : يا أهلى وعشيرتى الذين يسرنى ما يسردم ويؤلمنى ما يؤلمهم . « أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ، أى : أخبرونى إن كنت على بصيرة من أمرى ، وحجة واضحة من ربي ، بها يتبين الحق من الباطل .

« وآتاني رحمة عن عنده ، أي : ومنجني بفضله وإحسانه النبوة التي هي طريق الرحمة لمن آمن بها ، واتبع من اختاره الله لها . فالمراد بالرحمة هنا النبوة « فعميت عليكم ، أي . فأخفيت عليكم هذه الرحمة ، وغاب عنكم الانتفاع بهداياتها ، لأنكم من استجب العمى على الهدى .

يقال : عمى على فلان الأمر : أي أخفى عليه حتى صار بالنسبة إليه كالأعمى قال صاحب المنار : قرأ الجمهور فعميت - بالتخفيف - كخفيت وزنا ومعنى . قال - تعالى - « فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالتشديد والبناء المفعول « فعميت » أي : فحجبها عنكم جهلكم وغروركم . . .

والتعبير بعميت مخففة ومشددة أبلغ من التعبير بخفيت وأخفيت ، لأنه مأخوذ من العمى المقتضى لأشد أنواع الخفاء (١)

والاستفهام في قوله : « أنلزمكموها وأنتم لها كارهون » ، الإنكار والنفي . أي : إذا كانت الهداية إلى الخير التي جئتمكم بها قد خفيت عليكم مع وضوحها وجليتها ، فهل أستطيع أنا وأباي أن نجيحكم لإجبارا ، ونفسركم قسرا على الإيمان بي ، وعلى التصديق بنبوتي ، والحال أنكم كارهون لها نافرون منها . ؟ كلا إنما لا نستطيع ذلك لأن الإيمان الصادق يكون عن اقتناع واختيار لا عن إكراه وإجبار .

قال صاحب الظلال ما ملخصه : واللفظ في القرآن قد يرسم بجرسه صورة كاملة للتناقض "فني بين الألفاظ . ومن أمثلة ذلك قوله - تعالى - في قصة نوح مع قومه « أنلزمكموها . . . » فانت تحس أن كلمة أنلزمكموها تصور جو الإكراه ، يدمج كل هذه الضمائر في النطق ، وشد بعضها إلى بعض كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون ، ويشدون إليه وهم نافرون ، وهكذا يبدو

لون من التناقض في التعبير أعلى من البلاغة الظاهرية ، وأرفع من الفصاحة اللفظية ، (١) .

ثم وجه نوح - عليه السلام - قداء ثانيا إلى قومه زياد في التلطف معهم . وطمعا في إثارة وجدانهم نحو الحق فقال : « ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ، أبى : لا أطلب منكم شيئا من المال في مقابل تبليغ ما أمرني ربي بتبليغه إليكم : لأن طلبى هذا قد يجعلكم قتلوه من أنى محب للمال . . . »

« إن أجرى إلا على الله ، - تعالى - وحده ، فهو الذى يثيبني على دعوتى إلى عبادتكم له ، وفي هذه الجملة إشارة إلى أنه لا يسأل الله - تعالى - مالا ، وإنما يسأله ثوابا ، إذ ثواب الله يسمى أجرا ، لأنه جزاء على العمل الصالح . وشبه هذه الآية قوله - تعالى - في سورة الشعراء : « وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ، » وجملة « وما أنا بطارد الذين آمنوا ، معطوفة على جملة « لا أسألكم عليه مالا ، لأن مضمونها كالنتيجة لمضمون المعطوف عليها ، إذ أن زهده في ما لهم يقتضى تمسكه بأتباعه المؤمنين .

الطرد : الأمر بالبعد عن مكان الحضور تخفيرا أو زجرا .

أبى : وما أنا بطارد الذين آمنوا بدعوتى ، سواء أكانوا من الفقراء أم من الأغنياء ، لأن من استغنى عن مال الناس وعطائهم لا يقيسهم بمقياس الغنى والجاه والقوة وانهم يقيسهم بمقياس الإيمان والتقوى .

قال الألوسى : والمراد عن ابن جريج أنهم قالوا له يا نوح ان أحببت أن تتبعك فأطرد هؤلاء الأراذل - ولأفلن نرضى أن نكون نحن وهم في الأمر سواء وذلك كما قال زعماء قریش للنبي - صلى الله عليه وسلم - شأن فقراء الصحابة : أطرد هؤلاء . عن مجلسك ونحن نذهبك فإننا نستحي أن نجاس معهم في مجلسك ... ، (٢)

(١) تفسير في ظلال القرآن ج ١٢ ص ٥٤٢

(٢) تفسير الألوسى : ١٢ ص ٣٥

وجملة ، أنهم ملاقوا ربهم ، تعاليل لنفي طردهم .

أى : ان أطردهم عن مجلسى أبدا ، لأنهم قد آمنوا بى ، ولأن مصيرهم إلى الله - تعالى - ، فيحاسبهم على سرهم وعلنهم ، أما أنا فأكتفى منهم بظواهرهم التى تدل على صدق إيمانهم ، وشدة إخلاصهم .

وجاءت هذه الجملة بصيغة التأكيد ، لأن الملأ الذين كفروا من قومه كانوا ينكرون البعث والحساب . .

وقوله : : وليكنى أراكم قوما تجهلون ، إستدراك مؤكدا لمضمون ما قبله ، أى : ان أطردهم ، لأن ذلك ليس من حقى بعد أن آمنوا ، وبعد أن تكفل الله بهجاءهم ، وليكنى مع هذا البيان المنطوق الواضح ، أراكم قوما تجهلون القيم الحقيقية التى يقدر بها الربى عند الله ، وتجهلون أن مرد الناس جميعا إليه وحده - سبحانه - ليحاسبهم على أعمالهم . وتتداولون على المؤمنين تطاولا يدل على طغيانكم وسفاهتكم .

وحذف مفعول د تجهلون ، للعلم به ، والإشارة إلى شدة جهلهم .

أى : تجهلون كل ما ينبغى ألا تجهله عاقل

ثم وجه إليهم نداء ثالثا لعلمهم يفتنون إلى رشدهم فقال : : ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردهم ، أفلا تدكرون . .

أى : افترضوا يا قوم أنى طردت هؤلاء المؤمنين الفقراء من مجلسى ، فن ذا الذى يحمىنى ويحيرنى من عذات الله ، لأنه - سبحانه - ميزانه فى تقييم الناس ليس كميزانكم ، إذ أكرم الناس عنده هو أتقاهم وليس أغناهم ، وهؤلاء المؤمنون الفقراء هم أكرم عنده - سبحانه - منكم ، فكيف أخردهم ؟

والاستفهام فى قوله : : أفلا تدكرون ، لتوبيخهم وزجرهم . والجملة معطوفة على مقدر .

أى : أنصرون على جهلكم ؛ فلا تتذكرون أن لهم رباً ينصرهم إن طردتهم ؟ إن بقيتم على هذا الإصرار سيكون أهلكم فرطاً ، وستعرضون للعذات الأليم الذى يهلككم

ثم أخذ نوح - عليه السلام - فى تفنيد شبهاتهم ، وفى دحض مقدماتهم ، وفى تعريفهم بحقيقة أمره فقال : **ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لى ملك ..**

والخزائن : جمع خزانة - بكسر الخاء - وهو المكان الذى يخزن فيه المال أو الطعام أو غيرهما خشية الضياع . والمراد منها هنا : أنواع رزقه - سبحانه - التى يحتاج إليها عباده . وأضيفت إليه - سبحانه - لاختصاصه بها وملكيته لها .

أى : لى لا أقول لكم لى النبوة التى وهبى الله لإبائى ، نجعلنى أملك خزائن أرزاقه - سبحانه - فأصير بذلك من الأثرياء ، وأعطى من أشاء بغير حساب ...

كلا لى لا أملك شيئاً من ذلك ، وإنما أنا عبد الله ورسوله ، أرسلنى لأخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

وهذه الجملة المكرومة رد على قولهم السابق ١ ، وما نرى لكم علينا من فضل . وأيضاً لا أقول لكم لى أعلم الغيوب التى اختص الله بعلمها ، فأدعى قدرة ليست للبشر ، أو أزعم أن لى صلة بالله - تعالى - غير صلة النبوة . أو أدعى الحكم على قلوب الناس وعلى منزلاتهم عند الله ، كما ادعيتهم أنهم فقلتم : وما نراك أقبلك إلا الذين أراذلنا بآدى الرأى

وأيضاً فإنى لا أقول لكم لى ملك ، بل أنا بشر مثلكم آكل مما تأكلون منه ، وأشرب مما تشربون منه ، إلا أن الله - تعالى - اختصنى من بينكم بالنبوة ، والبشرية مقتضى للنبوة وليست مانعاً منها - كما تزعمون - حيث قلتم : وما نراك إلا بشراً مثلاً . . .

.. ولم يكف نوح - عليه السلام - بهذا الرد المبطل لدعاوهم الفاسدة ، بل أضاف إلى ذلك - كما حكى القرآن عنه - ، ولا أقول للذين تزدري أعينكم كن يؤثيهم الله خيرا ، الله أعلم بما أفهمهم ، إني إذا لمن الظالمين .

وقوله : « تزدري » من الازدراء بمعنى التحقير والانتهاص . يقال : ازدري فلان فلانا إذا احتقره وعابه .

أى : أنا لا أقول لكم بأنى أملك خزائن الله ، أو بأى أعلم الغيب ، أو بأنى ملك من الملائكة ، ولا أقول لكم - أيضا - فى شأن الذين تنظرون إليهم فظنوا احتقار واستصغار : إنهم - كما تزعمون - « لن يؤثيهم الله خيرا ، يسعدهم فى دينهم ودينهم وأخراهم » ، بل أقول لكم إنه - سبحانه - سيؤثيهم ذلك - إذا شاء - ؛ لأنه - سبحانه - هو الأعلم بما فى نفوسهم من خير أو شر . أما أنا فلا علم لى إلا بظواهرهم التى تدل على إيمانهم وإخلاصهم ، وإني إذن لمن الظالمين ، لنفسى ولغيرى إذا ادعيت آية دعوى من هذه الدعاوى .

قال البيضاوى ما ملخصه . وأسند - سبحانه - الازدراء إلى الآعين فى قوله « تزدري أعينكم » دلالة على التنبيه على أنهم استزدلهم بآدى الرؤية - أى بمجرد نظرهم إليهم - من غير رؤية بسبب ما عاينوه من رثانة حالهم وقلة منازلهم . دون تأمل فى معانيهم وكالاتهم ،^(١) .

والإسناد من باب المجاز العقلى . لأن الازدراء ينشأ عن مشاهدة الصفات الخفية « فى نظر الناظر » فتكون الآعين سببا فى هذا الازدراء .

وأكد جملة « إني إذن لمن الظالمين » بعدة مؤكدات ، تحقيقا لظلم كل من يدعى شيئا من هذه الدعاوى ، وتمكيدا لأولئك الكافرين الذين احتقروا المؤمنين ، وزعموا أن الله - تعالى - لن يؤثيهم خيرا .

وهكذا نجد نوحا - عليه السلام - يشرح لقومه بأسلوب مهذب حكيم حقيقة أمره ، ويرد على شبهاتهم بما يزدقها ...
وعندما وجدوا أنفسهم عاجزين عن الرد على فنيهم بأسلوب مقارعة الحجج بالحجة ، لجأوا - على عادة طبقهم - إلى أسلوب التحدى وقد أخذتهم العزة بالإثم فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - :

« قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ، فَأَتَيْنَا بِمُتَعِدَّةٍ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ ، إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) »

أى : قال قوم نوح - عليه السلام - له بعد أن غلبهم بحجته ، وعجزوا عن الدفاع عن أنفسهم : « يا نوح قد جادلتنا فأكثر جدالتنا »

أى : خاصمتنا ونازعتنا فأكثر فى ذلك حتى لم تترك لنا منفذا للرد عليك والجدال هو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة . وأصله - كما يقول الألوسى - من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله ، ومنه الجدبل - أى الحبل المفقول - ، وجدلت البناء أحكمته ، والأجدل : الصقر المحكم البنية ، والمجدل - كنه - القصر المحكم البناء

وسميت المنازعة فى رأى جدالا ، لأن كل واحد من المتجادلين كأنما يفتل الآخر عن رأيه - أى يصرفه عنه -

وقيل : الأصل فى الجدال الصراع ، وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة - بفتح الجيم - أى : الأرض الصلبة ، (١) .

ثم أضافوا إلى هذا العجز عن مجابهة الحجة سفاهاة في القول فقالوا : فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين .

أى : لقد سمعنا بجدلك لنا ومللناها ، فأتنا بالعذاب الذى تتوعدنا به ، إن كنت من الصادقين فى دعواك النبوة ، وفى وعيدك لنا بعقاب الله ، فإننا مصرون على عبادة آلهتنا ، وكارهون لما تدعوننا إليه .

وهذا شأن الجاهل المعاند ، إنه يشهر السيف إذا أعجزته الحجة ، ويعلم التحدى إذا يقس عن مواجهة الحق

ولسكن نوحا - عليه السلام - لم يخرج به هذا التحدى عن سمته الكريم ، ولم يقعه عناد قومه عن مداومة النصح لهم ، وإرشادهم إلى الحقيقة التى ضلوا عنها ، فقد رد عليهم بقوله : إنما يأتىكم به الله - إن شاء - وما أقم بمعجزين . .

أى : إنما يأتىكم بهذا العذاب الذى تستعجلونه الله - تعالى - وحده ، إن شاء ذلك ، لأنه هو الذى يملكه ، وما أقم بمعجزين ، أى : وما أقم بمستطيعين الطروب من عذابه متى اقتضت مشيئته - سبحانه - إنزاله بكم ، لأنه - تعالى - لا يعجزه شيء .

ثم أضاف إلى هذا الاعتراف بقدرة الله - تعالى - اعترافا آخر بشمول إرادته فقال : ولا يتفعمكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم . .

والنصح معناه : تحرى الصلاح والخير للنصوح مع إخلاص النية من شوائب الرياء .

يقال : نصحت له . . . أى : أرشدته إلى ما فيه صلاحه .

ويقال : رجل ناصح الجيب إذا كان فقى القلب طاهر السريرة . والناصح الخالص من كل شيء . .

أى : لاني قد دعوتكم إلى طاعة الله ليلا ونهارا ، ولم أقصر معكم فى النصيحة

ومع ذلك فإن نصحي الدائم لن يفيدكم شيئا ، مادامت قلوبكم في عمى عنه ،
وأسماعكم في صمم منه ، وقفوسكم على غير استعداد له .

وجواب الشرط في قوله ، « إن أردت أن أنصح لكم ، عذوف لدلالة
ماقبله عليه .

وقوله ، « إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون : زيادة
تأكيد منه - عليه السلام - لعموم قدرة الله وإرادته .

أى : إن كان الله - تعالى - يريد أن يضلكم عن طريق الحق ، ويصرفكم
عن الدخول فيه ، بسبب إصراركم على الجحود والعناد ، فعل ذلك ، لأنه هو
ربكم ومالك أمركم ، وإليه وحده ترجعون يوم القيامة ، ليجازيكم الجزاء
الذى تستحقونه .

وهكذا نجد نوحا - عليه السلام - قد سلك في دعوته إلى الله ، أحكم
السبل ، واستعمل أبلغ الأساليب ، وصبر على سفاهة قومه صبرا جميلا .

وعند هذا الحد من قصة نوح مع قومه ، تنتقل السورة الكريمة انتقالا
سريعا بقرائنها إلى الحديث عن مشركى مكة ، الذين أنكروا أن يكون القرآن
من عند الله ، ووقفوا من نبيهم - صلى الله عليه وسلم - موقفا يشبه موقف
قوم نوح منه - عليه السلام - ، فترد عليهم بقوله - تعالى - :

« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي ، وَأَنَا بَرِيءٌ
مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) » .

وأم هنا منقطعة بمعنى بل التى للإضراب ، وهو انتقال المتكلم من غرض
إلى آخر .

والافتراء : الكذب المتعمد الذى لا توجد أدنى شبهة لقائله .

والإجرام : اكتساب الجرم وهو الشيء القبيح الذي يستحق فاعله العقاب .

يقال : أجرم فلان وجرم واجترم ، بمعنى اقترف الذنب الموجب للعقوبة وللمفسرين في معنى هذه الآية اتجاهان :

الاتجاه الأول يرى أصحابه : أنها معترضة بين أجزاء قصة نوح مع قومه ، وأنها في شأن مشركي مكة الذين أنكروا أن يكون القرآن من عند الله .

وعليه يكون المعنى : لقد سقنا لك يا محمد من أخبار السابقين ما هو الحق الذي لا يحوم حوله باطل ، ولسكن المشركين من قومك لم يعتبروا بذلك ، بل يقولون إنك قد افتريت هذا القرآن ، قل لهم : إن كنت قد افتريته - على سبيل الفرض - فعلى وحدي تقع عقوبة إجرامي وافترائي الكذب ، وأنا يرى من عقوبة إجرامكم وافترائكم الكذب .

أما الاتجاه الثاني فيرى أصحابه أن الآية الكريمة ليست معترضة ، وإنما هي من قصة نوح عليه السلام - وعليه يكون المعنى : بل أيقول قوم نوح إن نوحا - عليه السلام - قد افترى واختلق ما جاء به من عند نفسه ثم نسبته إلى الله - تعالى - ، قل لهم إن كنت قد افتريته فعلى سوء عاقبة إجرامي وكذبي ، وأنا يرى مما افترفته من منكرات ، وماتك تسبونني من ذنوب .

ويبدو لنا أن الاتجاه الأول أرجح ، لأن التعبير عن إنكارهم يقولون ، وعن الرد عليهم بقل ، الدالين على الحال والاستقبال ، يقوى أن الآية الكريمة في شأن مشركي مكة .

وقد اقتصر الإمام ابن جرير على الاتجاه الأول ، ولم يذكر شيئا عن الاتجاه الثاني مما يدل على ترجيحه للاتجاه الأول فقال مالم يخصه : يقول - تعالى - ذكره : أيقول يا محمد هؤلاء المشركون من قومك ، افترى محمد هذا القرآن وهذا الخبر عن نوح ، قل لهم : إن افتريته فتخرضته واختلقته فعلى

لأئمتي في افتراءي ما افتريت على ربي دونكم... وأنا بريء مما تذهبون
وتأثمون في حقي وحق ربكم ...» (١).

.. وإلى هنا نرى الآيات الكريمة قد حكّت لنا جانباً من مجادلة قوم نوح له،
ومن تطاولهم عليه، ومن تحديهم لدعوته، كما حكّت لنا رده عليهم بأسلوب
حكيم، جعلهم يعجزون عن مجابته فإذا كان من شأنه وشأنهم بعد ذلك ؟

• • •

لقد تابعت السورة الكريمة حديثها عن هذه القصة، فبينت بعد ذلك قضاء
الله العادل في هؤلاء الظالمين، حيث حكّت لنا ما أوحاه الله إلى نوح - عليه
السلام - في شأنهم، وما أمره بصنعه فقال - تعالى - :

« وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ ،
فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلَکَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا
تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ، إِنَّهُمْ مَفْرُقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعِ الْفُلَکَ وَكَلَّمَا مَرَّ
عَلَيْهِ مَلَأْ مِنْ قَوْمِهِ سِخْرًا وَمَنْعَهُ قَالَ إِن تَسْخَرُونَا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا
تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ
هَذَا بِمَقِيمٍ (٣٩) » .

وقوله - سبحانه - : (وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن
قَدْ آمَنَ) معطوف على قوله (قالوا يا نوح قد جادلنا فأكثر جدالنا ...) .
أي : بعد أن أوحى قوم نوح في طغيانهم ، وصهوا آذانهم عن سماع دعوته ..
أوحى الله - تعالى - إلى نوح بأن يكتفي بمن معه من المؤمنين ، فإنه لم يبق
في قومه من يتوقع إيمانه بعد الآن ، وبعد أن مكث فيهم زمناً طويلاً يدعوهم
إلى الدخول في الدين الحق ، فلم يردم دعاءه إلا فراراً ..

وقوله : « فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » تسليية له - عليه السلام - عما أصابه منهم من أذى .

والابتئاس : الحزن . يقال : ابتأس فلان بالامر ، إذا بلغه ما يكرهه ويغمه . والابتئس : الكاره الحزين في استكافته .

أى : فلا تحزن بسبب إصرارهم على كفرهم ، وتماديهم في سفاهاتهم وطمعائهم ، فقد آن الأوان للانتقام منهم .

قال الإمام ابن كثير : يخبر الله - تعالى - في هذه الآية ، أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نقمة الله بهم ، وعذابه لهم ، فدعا عليهم نوح دعوته وهى : رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، فعند ذلك أوحى الله - تعالى - إليه : « أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » ، فلا تحزن عليهم ، ولا يهملك أمرهم ، (١) .

وقوله : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ... » ، معطوف على قوله .. فلا تبتئس .. .

والفلك : ما عظم من السفن . ويستعمل هذا اللفظ الواحد والجمع ، والمراد به هنا سفينة واحدة عظيمة قام بصنعها نوح - عليه السلام - .
والباء فى قوله « بأعيننا » ، للبالغة ، والجار والمجرور فى موضع الحال من ضمير اصنع .

أى : واصنع الفلك يا نوح ، حالة كونك بمرأى منا ، وتحت رعايتنا وتوجيهنا وإرشادنا عن طريق وحينا .

وقوله - سبحانه - « ولا تخاطبى فى الذين ظلموا لأنهم مفروقون » ، نهى له عن المراجعة بشأنهم .

أى : ولا تخاطبى يا نوح فى شأن هؤلاء الظالمين ، بأن ترجونى فى رحمتهم أو فى دفع العذاب عنهم ، فقد صدر قضائى بإغراقهم ولا راد لقضائى .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٥٢ طبعة دار الشعب .

وقوله - تعالى - ، ويصنع الفلك ، بيان لامثال نوح لأمربه .
وجاء التعبير بالفعل المضارع مع أن الصنع كان في الماضي ؛ استحضارا
لصورة الصنع ، سقى لكان نوحا - عليه السلام - يشاهد الآن وهو يصنعها .
ثم بين - سبحانه - موقف قومه منه وهو يصنعها وقال : وكلما مر عليه
ملا من قومه سخرها منه

والسخرية : الاسهزاء . يقال : سخر فلان من فلان وسخر به ، إذا
استخف به وضحك منه .

أى : امثال نوح لأمربه ، فطفق يصنع الفلك ، فكان الكافرون من
قومه كلما مروا به وهو يصنعها اسهزوا به ، وتعجبوا من حاله ، وقالوا له على
سبيل النهمك به ، يا نوح صرت نجارا بعد أن كنت نبيا ، كما جاء في بعض الآثار .
وهنا يرد عليهم نوح بقوله : إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كانسخرون .
أى قال نوح لهم : إن تسخروا منى ومن أتباعى اليوم لصنعنا السفينة ،
وتستهجلوا منا هذا العمل ، فإننا سنسخر منكم في الوقت القريب سخرية محققة
في مقابل سخريتكم الباطلة .

قال الإمام الرازى : وقوله : إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كانسخرون ،
فيه وجوه :

الأول : التقدير : إن تسخروا منا في هذه الساعة فإننا نسخر منكم سخرية
مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الفرق في الدنيا والحزى في الآخرة .

الثاني : إن حكمتم علينا بالجهل فيما نصنع فإننا نحكم عليكم بالجهل فيما أنتم
عليه من الكفر والتعرض لسخط الله وعذابه ، فأقم أول بالسخرية منا .

الثالث : إن تستجهلونا فإننا نستجهلكم ، وتستجهلكم أقبح وأشد ،
لأنكم لا تستجهلون إلا لأجل الجهل بحقيقة الأمر ، والاعتذار بظاهر الحال ،
كما هو عادة الأطفال ، (١) .

ثم أضاف نوح - عليه السلام - إلى تهديدهم تهريدا آخر فقال : فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ،
 أى : فسوف تعلمون عما قريب ، من منّا الذى سينزل عليه العذاب المخزى الملمين فى الدنيا ، ومن منّا الذى سيحل عليه العذاب الدائم الخالد فى الآخرة .

وبهذا نرى أن هذه الآيات المكرمة قد قررت حكم الله الفاصل فى شأن قوم فوح - عليه السلام - ، بعد أن لبث فيهم زمنا طويلا يدعوهم إلى الحق ، ولكنهم صموا آذانهم عنه ، فإذا كان من أمره وأمرهم بعد ذلك .
 كان من أمره وأمرهم بعد ذلك أن أمر الله - تعالى - نوحا - عليه السلام - أن يحمل فى السفينة بعد أن أتم صنعها من كل نوع من أنواع الحيوان ذكرا وأنثى ، ثم نزل الطوفان ، وسارت السفينة بين فيها ، وأغرق الله - تعالى - الظالمين ، وقد حكى - سبحانه - كل ذلك فقال - تعالى - .

« حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ، قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل » (٤٠) وقال اركبوا فيها باسم الله نجريها ومراكها إن ربى لغفور رحيم (٤١) وهى تجري بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين (٤٢) قال سأوى إلى جبل يعصيني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رجم وحال بينهم الموج فكان من المغرقين (٤٣) وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين (٤٤) .

فقوله - سبحانه - (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل

زوجين اذنين ... بيان لمرحلة جديدة من مراحل قصة نوح - عليه السلام - مع قرمه .

و (حتى) هنا حرف غاية لقوله - تعالى - قبل ذلك (ويصنع الفلك ... الخ) .

والمراد بالأمر في قوله - سبحانه - : حتى إذا جاء أمرنا ... حلول وقت نزول العذاب بهم ، فهو مفرد الأمور ، أى : حتى إذا حل بهم وقت عذابنا ... قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين .

ويصح أن يكون المراد به الأمر بالشئ على أنه مفرد الأوامر ، فيكون المعنى : حتى إذا جاء أمرنا افوح بركوب السفينة ، وللأرض تفجير عيونها ، وللسماء بانزال أمطارها ... قلنا احمل فيها ...

وجملة : وفار التنور ، مطروقة على : جاء أمرنا ، وكلمة : فار ، من الفور والفوران ، وهو شدة الغليان للماء وغيره .

قال صاحب المنار مالم يخصصه : والفور والفوران ضرب من الحركة والارتقاع القوي . يقال في الماء إذا غلا وارتفع ... ويقال في النار إذا حاجت قال - تعالى - : إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور ، ... ومن المجاز : فار الغضب ، إذا اشتد ... (١)

والمفسرين في المراد بلفظ : التنور ، أقوال منها : أن المراد به الشئ الذى يخبز فيه الخبز ، وهو ما يسمى بالموقد أو السكاون ... ومنها أن المراد به وجه الأرض ...

ومنها : أن المراد به موضع اجتماع الماء في السفينة ...

ومنها : أن المراد به ظلوع الفجر من قولهم : تنور الفجر ...

ومنها : أن المراد به أعلى الأرض والمواقع المرتفعة فيها ..

وقيل : إن الكلام على سبيل المجاز ، والمراد بقوله - سبحانه - : قال التنوير التمثيل بحضور العذاب ، كقولهم : حمى الوطيس ، إذا اشتد القتال ^(١) .
وأرجح هذه الأقوال أولها ، لأن التنوير في اللغة يطلق على الشيء الذي يخبر فيه ، وفورانه معناه : تبع الماء منه بشدة مع الارتفاع والغليان ، كما يفور الماء في القدر عند الغليان ، ولعل ذلك كان علامة لنوح - عليه السلام - على اقتراب وقت الطوفان .

وقد رجح هذا القول المحققون من المفسرين ، فقد قال الإمام ابن جرير بعد أن ذكر جملة من الأقوال في معنى التنوير : : وأولى الأقوال عندنا بتأويل قوله : التنوير ، قول من قال : هو التنوير الذي يخبر فيه ، لأن هذا هو المعروف من كلام العرب . وكلام العرب لا يوجه إلا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب ، إلا أن تقوم حجة على شيء منه بخلاف ذلك ، فيسلم لها .
وذلك لأنه جل ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم به لإفهامهم معنى ما خاطبهم به .
أى : قلنا لنوح حين جاء عذابنا قومه . . . وقال التنوير الذي جعلنا فورانه بالماء آية بحىء عذابنا . . . أحمل فيها - أى السفينة من كل زوجين اثنين . . . ^(٢)
وقال الامام الرازى ما ملخصه : فإن قيل : فما الأصح من هذه الأقوال - في معنى التنوير - ؟

قلنا : الأصل حمل الكلام على حقيقته ، ولفظ التنوير حقيقة في الموضع الذى يخبر فيه ، فوجب حمل اللفظ عليه . . .

ثم قال : والذي روى من أن فور التنوير كان علامة لهلاك القوم لا يمنع لأن هذه واقعة عظيمة ، وقد وعد الله - تعالى - المؤمنين العجاة ، فلا بد وأن

(١) راجع تفسير القرطبي ج ٩ ص ٢٠٣ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١٢ ص ٢٥ .

يجعل لهم علامة بها يعرفون الوقت المعين ، فلا يبعد جعل هذه الحالة علامة لحدوث هذه الواقعة ، (١) .

وجملة : قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ، جواب إذا ولفظ (زوجين) تعنية زوج ، والمراد به هنا الذكر والأنثى من كل نوع وقرأة الجمهور : (من كل زوجين اثنين) بدون تنوين للفظ كل ، وبإضافته إلى زوجين .

وقرأ حفص : (من كل زوجين اثنين) بتنوين لفظ كل وهو تنوين عوض عن مضاف إليه ، والتقدير : احمل فيها من كل نوع من أنواع المخلوقات التي أنشأت في حاجة إليها ذكرا وأنثى .

ويكون لفظ (زوجين) مفعولا لقوله (احمل) واثنين صفة له . والمراد بأهله : أهل بيته كزوجته وأولاده ، وأكثر ما يطلق لفظ الأهل على الزوجة ، كما في قوله - تعالى - (فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا ، قال لأهله امكثوا إني آنست نارا ...) (٢) . والمراد بأهله : من كان مؤمنا منهم .

وجملة (إلا من سبق عليه القول) استثناء من الأهل . أن : احمل فيها أهلك إلا من سبق عليه قضاؤنا بكفره منهم فلا تحمله .

والمراد بمن سبق عليه القول : زوجته التي جاء ذكرها في سورة التحريم في قوله - تعالى - (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين نجّاهما ..) وابنه الذي أبي أن يركب معه السفينة .

قال الألوسي عند تفسيره لهذه الجملة : والمراد زوجة له أخرى تسمى

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٧ ص ٢٢٦ .

(٢) سورة القصص الآية ٢٩ .

(واعلة) بالعين المهملة ، وفي رواية (والقه) وابنه منها واسمه (كنعان) ..
وكانا كافرين (١) .

وجملة (وإن آمن) معطوفة على قوله (وأهلك) أى : واحمل معك من آمن بك من قومك .

والمعنى للآية الكريمة : لقد امتثل نوح أمر ربه له بصنع السفينة ، حتى إذا ما تم صنعها ، وحان وقت نزول العذاب بالكافرين من قوميه ، وتحققت العلامات الدالة على ذلك ، قال الله - تعالى - لنوح : احمل فيها من كل نوع من أنواع المخلوقات التى أنت فى حاجة إليها من ذكر وأنثى ، واحمل فيها أيضا من آمن بك من أهل بيتك دون من لم يؤمن ، واحمل فيها كذلك جميع المؤمنين الذين اتبعوا دعوتك من غير أهل بيتك .

وقد ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على قلة عدد من آمن به فقال : « وما آمن معه إلا قليل » .

أى : وما آمن معه إلا عدد قليل من قومه بعد أن لبث فيهم قرونا متطاولة يدعوهم إلى الدين الحق ليلا ونهارا ، سرا وعلانية .

قال الألوسى بعد أن ساق أقوالا فى عدد من آمن بنوح - عليه السلام - من قومه : ... والرواية الصحيحة أنهم كانوا تسعة وسبعين : زوجته ، وبنيه الثلاثة ونسائهم ، واثنا عشر رجلا وامرأة من غيرهم ... (٢) .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله نوح للمؤمنين عند ركوبهم السفينة فقال : « وقال اركبوا فيها بسم الله يغريها ومرسأها إن ربي لغفور رحيم » .

• يغريها ومرسأها ، قرأها الجمهور بضم الجيمين فيهما ، وهما مصدران من جرى وأرسى . وإنباء فى « باسم الله » ، للعلامة ، والآية الكريمة معطوفة على جملة ، قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين ... ،

(١) تفسير الألوسى ١٢ ص ٥٠ .

(٢) تفسير الألوسى ١٢ ص ٥٠ .

أى : قلنا له ذلك فامثل أمرنا ، وقال لمن معه من المؤمنين : سلوا أمركم لمشيئة الله — تعالى — وقولوا عند ركوب السفينة : باسم الله جريها في هذا الطوفان العظيم ، وباسم الله إرساؤها في المكان الذي يريد الله — تعالى — إرساؤها فيه .

قال الشيخ الفاضل ابن عاشور : وعدى فعل ، اركبوا ، بى ، جريا على الأسلوب الفصيح ، فإنه يقال : ركب الدابة إذا علاها . وأما ركوب الفلك فيعدي بى ، لأن إطلاق الركوب عليه مجاز ، وإنما هو جلوس واستقرار ، فلا يقال : ركب السفينة ؛ فأرادوا التفرقة بين الركوب الحقيقي والركوب المشابه له ، وهى تفرقة حسنة ، (١) .

وجملة : إن ربى الغفور رحيم ، تعليل للأمر بالركوب المصحح لذكر الله — تعالى — :

أى : إن ربى العظيم المغفرة ولعظيم الرحمة لمن كان مطيعا له بخلاص في عبادته قال الإمام ابن كثير عند تفسير هذه الآية ما ملخصه : يقول الله — تعالى — لإخبارا عن نوح أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة : اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها

وقال — سبحانه — فى موضع آخر : فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين . وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين . .

ولهذا تستحب التسمية فى ابتداء الأمور : عند الركوب فى السفينة وعلى الدابة . . .

فقد روى الطبرانى عن ابن عباس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : أمان أمتى من الغرق إذا ركبوا فى السفن أن يقولوا : بسم الله الملك . . . بسم الله مجريها ومرساها إن ربى الغفور رحيم ، (٢) .

(١) تفسير سورة هود ص ٧٣ (٢) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٥٥

ثم بين - سبحانه - جال السفينة وهي تمر بهم عباب الماء فقال :
(وهي تجري بهم في موج كالجبال) .

والموج : ما ارتفع من ماء البحر عند اضطرابه . وأصله من ماج الشيء
يموج إذا اضطرب ومن قوله - تعالى - وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ..
قال صاحب الكشف : فإن قلت . بم اتصل قوله - تعالى - وهي تجري بهم . ؟
قلت : اتصل بمحذوف دل عليه أركبوا فيها باسم الله ، كأنه قيل : فركبوا
فيها وهم يقولون : باسم الله ، وهي تجري بهم . أى تجري بهم وهم فيها في موج
كالجبال ، يريد موج الطوفان ، شبه كل موجة بالجبل في تراكمها
وارتفاعها .. (١) .

وقوله - سبحانه - : (وادأى نوح ابنه وكان في معزل : يا بني أركب معنا
ولا تكن مع الكافرين) تصوير لتلك اللحظة الرهيبة الحاسمة التي أبصر فيها
نوح - عليه السلام - ابنه الكافر وهو منعزل عنه وعن جماعة المؤمنين .
والمعزل : مكان العزلة ، أى : الانفراد .

أى : وقبل أن يشتد الطوفان وترتفع أمواجه ، رأى نوح ابنه كانهان ،
وكان هذا الابن في مكان منعزل ، فقال له نوح بعاطفة الأبوة الناصحة المملوفة
يا بني أركب معنا في السفينة ، ولا تكن مع القوم الكافرين الذين سيهلكهم
الطوفان بين أمواجه عما قريب . ولكن هذه النصيحة الغالية من الأب الحزين
على مصير ابنه ، لم تجد أذنا واعية من هذا الابن العاق المغرور ، بل رد على
أبيه بقوله : (سأوى إلى جبل يعصمني من الماء ...)

أى : قال : سألتجىء إلى جبل من الجبال الشاهقة ، لكي أتحصن به من
وصول الماء إلى ...

وهنا يرد عليه أبوه الرد الأخير فيقول - كما حكى القرآن عنه - : (قال
لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ...)

أى : قال نوح لابنه : لا معصوم اليوم من عذاب الله إلا من رحمه سبحانه — بلطفه وإحسانه ، وأما الجبال وأما الحصون . . . وأما غيرهما من وسائل النجاة ، فسيملوها الطوفان ، ولن تغنى عن المحتشم بها شيئا .
وعبر عن العذاب بأمر الله ، تهويلا لشأنه . . .
وقوله : « وحال بينهما الموج فكان من المخرفين » ، بيان للعاقبة السيئة التي آل إليها أمر الابن الكافر .

أى : وحال وفصل الموج بهديره وسرعته بين الابن وأبيه ، فكانت النتيجة أن صار الابن الكافر من بين الكافرين المخرفين .
والتعبير بقوله : « وحال . . . » ، يشعر بسرعة فيضان الماء واشتداداه ، حتى لسكان هذه السرعة لم تمهلها ليكتملا حديثهما .
والتعبير بقوله : « فكان من المخرفين » ، يشير إلى أنه لم يفرق وحده ، وإنما غرق هو وغرق معه كل من كان على شاكلته في الكفر ، وهكذا تصور لنا هذه الآية الكريمة مادار بين نوح وابنه من محاورات في تلك اللحظات الحاسمة المؤثرة ، التي يبذل فيها كل أب ما يستطيع بذله من جهود لإنجاة ابنه من هذا المصير المؤلم

وبعد أن غرق الكافرون ، ونجا نوح ومن معه من المؤمنين ، وجه الله — تعالى — أمره إلى الأرض وإلى السماء . . . فقال : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء أقلعي ، وغيض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودي ، وقيل بعدا للقوم الظالمين » .

أى : وبعد أن أدى الطوفان وظيفته فأغرق بأمر الله — تعالى — الكافرين ، قال الله — تعالى — للأرض : « يا أرض ابلعي ماءك » .

أى : اشربى أيتها الأرض ما على وجهك من ماء ، وابتلعيه بسرعة في باطنك كما يتطلع الإنسان طعامه في بطنه بدون استقرار في الفم .
وقال — سبحانه — للسماء : « ويا سماء أقلعي » ، أى : أمسكى عن إرسال المطر

يقال : أفلح فلان عن فعله إقلاعا ، إذا كف عنه وترك فعله . ويقال : أفلحت
الحى عن فلان ، إذا تركته :

فامثلتا - أى الأرض والسماء - لأمر الله - تعالى - فى الحال ، فهو القائل
وقوله الحق : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » .

وقوله « وغيبض الماء ، أى : نقص ونضب . يقال : غاض الماء بغيبض ،
إذا قل ونقص .

والمراد به هنا : الماء الذى نشأ عن الطوفان ، .

وقوله : « وقضى الأمر ، أى : تم ونفذ ما وعد الله - تعالى - به نبيه
نوحا - عليه السلام - من إهلاكه للعوام الظالمين .

والضمير فى قوله : « واستوت على الجودى ، للسفينة ، والجودى - جبل
بشمال العراق بالقرب من مدينة الموصل . وقيل هو جبل بالشام

أى : واستقرت السفينة التى تحمل نوحا والمؤمنين بدعوته ، على الجبل
المعروف بهذا الاسم ، بعد أن أهلك الله أعداءهم .

قال ابن كثير ما ملخصه : وكان خروجهم من السفينة فى يوم عاشوراء
من المحرم ، فقد روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : مر النبى - صلى الله
عليه وسلم - بأفاس من اليهود ، وقد صاموا يوم عاشوراء ، فقال لهم : ما هذا
الصوم ؟ قالوا . هذا اليوم الذى نجيى الله موسى وبني إسرائيل من الغرق ،
وغرق فيه فرعون . وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودى . فصامه نوح
وموسى - عليهما السلام - شكرا لله .

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - أنا أحق بموسى ، وأحق بصوم هذا
اليوم . فصامه ، وقال لأصحابه . من كان أصبح منكم صائما فليتم صومه ،
ومن كان قد أصاب من غذاء أهله ، فليتم بقية يومه ، (١)

(١) سورة يس الآية ٨٢

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٥٧

ثم ختم — سبحانه — الآية الكريمة بقوله : وقيل بهذا للقوم الظالمين ،
أى : هلاكاً وسحقاً وطرداً من رحمة الله — تعالى — للقوم الذين ظلموا
أنفسهم بإيثارهم الكفر على الإيمان ، والضلالة على الهداية .

قال الجمل : « وبعداً ، مصدر بعد — بكسر العين — ، يقال بعد بعداً —
بضم فسكون — وبعداً — بفتحيتين — إذا بعد بعداً بعيداً بحيث لا يرجى عوده ،
ثم استعير للهلاك ، وخص بدعاء السوء . وهو منصوب على المصدر بفعل
مقدر . أى : وقيل بعدوا بعداً » (١) .

هذا وقد تكلم بعض العلماء عن أوجه البلاغة والفصاحة في هذه الآية كلاماً
طويلاً ، فنكتفي بذكر جانب مما قاله في ذلك الشيخ القاسمى في تفسيره ،
قال — رحمه الله — مالم يخصه : « هذه الآية بلغت من أسرار الإعجاز ما
وحوت من بدائع الفوائد نهايتها . وقد أهتم علماء البيان بإيراد ذلك ، ومن
أوسعهم مجالاً في مضمار معارفها الإمام السكاكى ، فقد أطل وأطنب في
كتابه ، المفتاح ، في الحديث عنها . . . »

فقد قال — عليه الرحمة — في بحث البلاغة والفصاحة ،

« إذ قد وقفت على البلاغة ، وعثرت على الفصاحة ، فمأذرك لك على
سبيل الانموذج ، آية أكشف لك فيها من وجوهها ما عسى أن يكون مستوراً
عنك ، وهذه الآية هي قوله — تعالى — « وقيل يا أرض ابلعى ماءك ، وياحماء
أقلعى ، وغيض الماء ، وقضى الأمر . . . » ،

والنظر في هذه الآية من أربع جهات : من جهة علم البيان ، ومن جهة علم
المعاني ، ومن جهة الفصاحة المعنوية ، ومن جهة الفصاحة اللفظية .

أما النظر فيها من جهة علم البيان فتقول : إنه — عز سلطانه — لما
أراد أن يبين معنى هو : أردنا أن نرد ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتد ،
وأن تقطع طوفان السماء فانقطع ، وأن نغيض الماء النازل من السماء ففاض

(١) حاشية الجمل على الجلالين ص ٢٠٠

لما أراد ذلك : بنى الكلام على التفسير ، بأن شبه الأرض والسماء بالمأمور الذى لا يتأتى منه أن يعصى أمره فقال : يا أرض ابلعى ماءك ، ويسماء اقلعى . . . ثم قال : « ماءك » بإضافة المـاء إلى الأرض على سبيل المجاز ، تشبيها لاتصال الماء بالأرض ، باتصال الملك بالملك .

ثم اختار لاحتباس المطر لفظ الإقلاع الذى هو ترك الفاعل للفعل . . . وأما النظر فيها من حيث علم المعانى فذلك أنه اختيار « يا ، دون سائر أخواتها ، لكونها أكثر فى الاستعمال . . . واختير لفظ « ابلعى ، على « ابتلعى ، لكونه أخصر . . .

ثم أطلق الظلم ليقناول كل نوع منه ، حتى يدخل فيه ظلمهم لأنفسهم وأما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية فهمى كما ترى . نظم للمعانى لطيف ، وتأدية لها ملخصة مبينة ، لانهقيد يعثر الفكر فى طلب المراد ، ولا التواء يشيك الطريق إلى المرقاد ، بل إذا جربت نفسك عند استماعها ، وجدت ألفاظها تسابق معانيها ، ومعانيها تسابق ألفاظها ، فما من لفظة فى تركيب الآية ونظمها تسبق إلى أذنك ، إلا ومعناها أسبق إلى قلبك .

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية : فالألفاظ على ما ترى عربية ، مستعملة جارية على قوانين اللغة ، سليمة من التنافر ، بعيدة عن البشاعة

ولا تظن الآية مقصورة على ما ذكرت ، فلعل ما تركت أكثر مما ذكرت (١) .

ثم ختم - سبحانه - قصة نوح مع قومه فى هذه السورة ، بتلك الصراحة التى تضرع بها نوح - عليه السلام - بشأن ولده ، وبذلك الرد الحكيم الذى رده الخالق - عز وجل - على نوح - عليه السلام ، وبتعقيب على القصة يدل على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه قال - تعالى - :

(١) راجع تفسير القاسمى ج ٩ ص ٢٤٤٦ وتفسير المنار ج ١٢ ص ٩٠

« وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ : رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ، وَإِنْ وَعْدُكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ، فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ، وَأَمَّمْ سَنُتَبِّعُهُمْ ثُمَّ يَمْسُحُ مِنْهَا عَذَابُ الْيَمِّ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ ، إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) ۝ »

والمراد بالنداء في قوله - سبحانه - : ونادى نوح ربه .. الدعاء والضراعة إلى الله - تعالى -

والجمله السكرية معطوفة على ما قبلها .

أى : وبعد أن تخلف ابن نوح عليه السلام عن الركوب معه في السفينة ، وقضى الأمر بهلاك الكافرين ونجاة المؤمنين .. تضرع نوح عليه السلام - إلى ربه فقال في استعطاف ورجاء :

يا رب إن ابني كنعان ، د من أهلى ، قطعة منى ، فأسألك أن ترحمه برحمتك د إن وعدك الحق ، أى : إن كل وعد تعده لعبادك هو الوعد الحق وأنت - ياربى - قد وعدتني بنجاة أهلى إلا من سبق عليه القول منهم ، لكنى فى هذا الموقف العصيب أطمع فى عفوك عن ابني وفى رحمتك له .

وقوله : د وأنت أحكم الحاكمين ، أى : وأنت يا إلهى - لاراد لما تحكم به ، ولا معقب لحكمك ، وحكمك هو الحق والعدل ، وهو المنزه عن الخطأ والمحاباة ، لأنه صادر عن كمال العلم والحكمة ...

واكتفى نوح - عليه السلام - بأن يقول : رب إن ابني من أهلي . وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين ، دون أن يصرح بمطلوبه وهو نجاة ابنه نادياً مع الله - تعالى - ، وحياء منه - سبحانه - واعتقاداً منه بأنه - سبحانه - عليم بما يريد ، وخبير بما يحول في نفسه

وهذا لون من الأدب السامى ، سلكه الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - في مخاطبتهم لأربهم - عز وجل - ومن أولى منهم بذلك ١١٩

ولعل نوحاً - عليه السلام - عندما تضرع إلى ربه - سبحانه - بهذا الدعاء لم يكن يهمل أن طلب الرحمة أو النجاة لابنه الكافر ممنوع ، فكان حاله في ذلك كحال النبي - صلى الله عليه وسلم - عندما قال لعمه أبي طالب : لا تستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك ، واستمر يستغفر له إلى أن نزل قوله - تعالى - : « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى » (١)

وقال الشيخ القاسمى : وإنما قال نوح ذلك - أى : رب إن ابني من أهلي ... ألح - لفهمه من الأهل ذوى القرابة الصورية ، والرحمة النسبية ، وغفل - لفرط التأسف على ابنه - عن استثنائه - تعالى - بقوله : « إلا من سبق عليه القول ، ولم يتحقق أن ابنه هو الذى سبق عليه القول ، فاستعطف ربه بالاسترحام ، وعرض بقوله (وأنت أحكم الحاكمين) إلى أن العالم العادل الحكيم لا يخلف وعده » (٢)

وقوله - سبحانه - (قال يا نوح إنه ليس من أهلك . . .) رد من الله تعالى - على نوح فيما طلبه منه .

أى : قال الله - تعالى - مجيباً لنوح - عليه السلام - فيها سأله إياه : يا نوح

(١) راجع تفسيرنا لسورة التوبة > ٣١٢ .

(٢) تفسير القاسمى > ٩ ص ٣٤٤٨

إن ابنك هذا (ليس من أهلك) لأن مدار الأهلية مبنى على القرابة الدينية ، وقد انقطعت بالسكفر ، فلا علاقة بين مسلم وكافر .

أو ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم ، بل هو ممن سبق عليه القول بسبب كفره) .

فالمراد نفي أن يكون من أهل دينه واعتقاده ، وليس المراد نفي أن يكون من صلبه ، لأن ظاهر الآية يدل على أنه إبنه من صلبه ، ومن قال بغير ذلك فقولُه ساقط ولا يلتفت إليه ، لخلوه عن الدليل .

قال ابن كثير : وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلا أنه ليس بإبنه ، وإنما كان ابن زنية

وقال ابن عباس وغير واحد من السلف : ما زلت امرأة نبي قط ، ثم قال : وقوله أنه ليس من أهلك (أى : الذين وعدتك بنجاتهم .

وقول ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا يحيد عنه ؛ فإن الله - تعالى - أغير من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة ^(١) وجملة (إنه عمل غير صالح) تعليل لنفي الأهلية .

وقد قرأ الجمهور (عمل) بفتح الميم وتنوين اللام - على أنه مصدر مبالغة في ذمه حتى لكأنه هو نفس العمل غير الصالح وأصل الكلام أنه ذو عمل غير صالح ، فحذف المضاف للمبالغة بجعله عين عمله الفاسد لمداومته عليه .

وقرأ الكسائي ويعقوب (عمل) بوزن فرح بصيغة الفعل الماضي - أى : إنه عمل عملا غير صالح وهو السكفر والعصيان ، فحذف الموصوف وأقيمت صفته مقامه .

قال صاحب الكشف وقوله : (إنه عمل غير صالح) تعليل لإنتفاء كونه من أهله . وفيه إيدان بأن قرابه الدين غامرة لقرابة النسب ، وأن نسبك في دينك ومعتقدك من الأبعد في المنصب وإن كان حبشيا وكنت قرشيا لصيقك

وخصيصك ، ومن لم يكن على دينك وإن كان أمس أتابك رحما فهو أبعد بعيد منك ^(١)

وقال الفخر الرازى : هذه الآية تدل على أن العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب ، فإن هذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلة من أقوى الوجوه ، ولكن لما انتفت قرابه الدين ، لاجرم تفاء الله — تعالى — بأبلغ الألفاظ وهو : (إنه ليس من أهلك) ^(٢)

والفاء فى قوله : (فلا تسألن ما ليس لك به علم ..) للتفريع .

أى : ما دمت قد وقفت على حقيقة الحال ، فلا تلتمس منى ملتصا لا تعلم على وجه اليقين ، أصواب هو أم غير صواب ، بل عليك أن تثبت من صحة ما تطالبه ، قبل أن تقدم على طلبه .

وجملة (إني أعظك أن تكون من الجاهلين) تأكيد لما قبلها ، ونهى له عن مثل هذا السؤال فى المستقبل ، بعد أن أعلمه بحقيقة حال ابنه .
أى : إني أنهارك يا قوح عن أن تكون من القوم الجاهلين ، الذين يسألون عن أشياء لا يتحققون وجه الصواب فيها .

ومنا بين الله -- تعالى -- أن نوحا -- عليه السلام -- قد تنبه إلى ما أرشده إليه ربه ، فبادر بطلب العفو والصفح منه -- سبحانه -- فقال : (قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ...) .

أى : قال قوح -- عليه السلام -- ملتصا بالصفح من ربه : رب إني أستجير بك ، وأحتمى بجنابك من أن أسألك شيئا بعد الآن ، ليس عندى علم صحيح بأنه جائز ولا تقى (ولا تفقر لى) ما فرط منى من قول ، وما صدر عنى من فعل .

(١) تفسير الكشاف ٢ ص ٢٧٣

(٢) تفسير الفخر الرازى ١٨ ص ٣

(و نرحمى) برحمتك الواسعة التى وسعت كل شىء .

(أكن من الخاسرين) الذين خسروا أنفسهم بالاحتجاب عن عليك وحكمتك . ثم بشر - سبحانه - نبيه نوحا - عليه السلام - بقبول توبته فقال : (قبل يانوح أهبط بسلام منا ، وبركات عليك وعلى أمم ممن معك)

والسلام : التحيّة المقرونة بالأمان والإطمئنان ، وأمله السلامه ، والباء فيه للبصاحبة والبركات . جمع بركة وهى ثبوت الخير ونماؤه وزيادته ، واشتقاقها من البرك ، وهو صدر البعير . يقال : برك البعير إذا ألقى بركة أى صدره على الأرض وثبت . ومنه البركة لثبوت الماء فيها .

والأم : جمع أمة ، وهى الجماعة الكثيرة من الناس ، يجمعها نسب واحد أو لغة واحدة ، أو موطن واحد .

أى : قال الله - تعالى - مبشرا نوحا - عليه السلام - بقبول توبته : يانوح أهبط من السفينة مصحوبا منا بالأمان مما تكره ، وبالخيرات النامية والنعم الثابتة عليك ، وعلى أمم متشعبة ومتفرعة وفاشئة من الأمم المؤمنة التى ستبسط معك ، بعد أن نجح كم الله - تعالى - بفضله ورحمته من العذاب ، الذى حل بالكافرين من قومك .

وكان مقتضى الظاهر أن يقال : قال يانوح أهبط بسلام ... ولكن جاء التعبير بقبيل ، مسaire للتعبيرات السابقة فى أجزاء القصة ، مثل قوله - سبحانه - وقيل بالأرض أبلغى ماءك ، وقوله : وقيل بعدا للقرم الظالمين ، .

وقوله (أهبط بسلام ...) فيه إشارة إلى أنه كان قبل الهبوط فى ضيافة الله ورعايته ، وأنه لولا عناية الله به وعن معه من المؤمنين ، لما نجحت السفينة من ذلك الطوفان العظيم .

والتعبير بقوله (منا) لزيادة التكريم ، وتأكيد السلام . أى : أنزل بسلام

ناشى. من عندنا ، وليس من عند غيرنا ؛ لأن كل سلام من غيرنا لاقبمة له بجانب سلامنا .

وقوله (عليك وعلى أمم ممن معك) متعلق بسلام وبركات .

وفي هذا إشارة إلى أنه - سبحانه - مبيجّل من ذرية نوح ومن ذرية من معه من المؤمنين ، أما كثيرة ستكون محل كرامة الله وأمانه وبركاته .

وقوله - سبحانه - (وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب ألیم) كلام مستأنف مسوق للاحتراز والتحذير من سوء عاقبة المخالفة لأمر الله ...

أى : أن الأمم التى ستكون من نسلك ومن نسل أتباعك يا نوح على قسمين : قسم منهم له منا السلام ، وعليه البركات بسبب إيمانه وعمله الصالح ...

وقسم آخر سنمتعهم فى الدنيا بالكثير من زينتها وخيراتها ، ثم يصيبه يوم القيامة عذاب ألیم بسبب جحوده لنعمنا ، وعصيانه لرسالتنا .

فعلى كل عاقل أن يجتهد فى أن يكون من القسم الأول ، وأن يتجنب القسم الثانى .

ثم اختتم الله - تعالى - قصة نوح - عليه السلام - مع قومه فى هذه السورة . بقوله : (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين) .

واسم الإشارة (تلك) يعود إلى ما قصه الله - تعالى - من قصة نوح مع قومه فى هذه السورة .

والأنباء : جمع نبأ وهو الخبر الهام . والغيب : مصدر غاب ، وهو ما لا تدركه الحواس ولا يعلم ببداهة العقل .

أى : تلك القصة التى قصصناها عليك يا محمد بهذا الأسلوب الحكيم ، من أخبار الغيب الماضية ، التى لا يعلم دقائقها وتفصيلها أحد سوانا .

ونحن (نوحيها إليك) ونعرفك بها عن طريق وحينا الصادق الأمين .

وهذه القصة وأمثالها (ما كنت تعلمها) أفت يا محمد ، وما كان يعلمها (قومك) أيضا ، بهذه الصورة الصادقة الحكيمة ، الحالية من الأساطير والأكاذيب .
(من قبل) هذا الوقت الذي أوحيناها لإليك فيه .

ومادام الأمر كذلك (فاصبر) صبرا جميلا على تبليغ رسالتك ، وعلى أذى قومك كما صبر أخوك نوح من قبل .

وجملة (إن العاقبة للمتقين) تلميل للأمر بالصبر .

والعاقبة : الحالة التي تعقب حالة قبلها ، وقد شاعت عند الإطلاق في حالة الخير كما في قوله - تعالى - (والعاقبة للمتقوى) . وأل فيها للجنس ، واللام في قوله (للمتقين) للاختصاص .

أى : إن العاقبة الحسنة الطيبة في الدنيا والآخرة ، للمتقين الذين إصاغوا أنفسهم عن كل ما لا يرضى الله - تعالى - ، وليست لغيرهم ممن استجبوا العمى على الهدى .

والآية الكريمة تعقيب حكيم على قصة نوح - عليه السلام - قصده به الامتحان على النبي - صلى الله عليه وسلم - والموعظة ، والتسليية .

قالامتحان نراه في قوله - تعالى - (ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) .

والموعظة نراها في قوله - سبحانه - (فاصبر) .

والتسليية نراها في قوله - عز وجل - (إن العاقبة للمتقين) .

وبعد ، فهذه قصة نوح - عليه السلام - كما وردت في هذه السورة الكريمة ، ومن العبر والعظات والهدايات والحقائق التي نأخذها منها ما يأتي :

١ - الدلالة على صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - ، فقد أخبرنا عن قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، وعن غيرها من القصص ، التي هي من أنباء الغيب ، والتي لا يعلم حقيقتها وتفصيلها أحد سوى الله - عز وجل - .

٢ - أن نوحا - عليه السلام - قد سلك في دعوته إلى الله - تعالى - أحسن الأساليب وأحكمها ، فقد دعا قومه إلى عبادة الله - تعالى - وحده في الليل وفي النهار . وفي السر وفي العلانية ، وأقام لهم أنوارا من الأدلة على صدقة ، ورغبهم في الإيمان بشئ ألوان الترغيب ، وحذرهم من الكفر بشئ أنواع التحذير ، وصبر على أذاهم صبرا جميلا ، ورد على سفاهاتهم وأقوالهم بمنطق سليم ، أبطل به حججهم ... مما جعلهم يكفون عن مناقشته ، ويلجأون إلى التحدى والتعنّت ...

وما أحوج الدعاة إلى الله - عز وجل - إلى التماس العبرة والعظة من قصة نوح مع قومه .

٣ - أن النسب مهما شرف وعظم ان ينفع صاحبه عند الله ، إلا إذا كان معه الإيمان والعمل الصالح ، وأن الإيمان والصلاح أيضا مرتبطين بالورثة والاشقاء لأنه لو كان الأمر كذلك لكانت ذرية نوح ومن معه من المؤمنين الذين نجوا معه في السفينة . كلها من المؤمنين الصالحين ، مع أن المشاهد غير ذلك .

ورحم الله الإمام القرطبي فقد قال - ما ملخصه - عند تفسيره لقرانه - تعالى - (قال يانوح إنه ليس من أهلك ...) : (وفي هذه الآية تسليمة للأباء في فساد أبنائهم وإن كان الآباء صالحين ، فقد روى أن ابنا لماك بن أنس ارتكب أمرا لا يليق بمسلم ، فلم بذلك مالك فقال : (الأدب أدب الله ، لا أدب الآباء والأمهات ، والخير خير الله ، لا خير الآباء والأمهات ...) (١) .

٤ - أن سؤال نوح - عليه السلام - ما سأل له لابنه لم يكن - كما قال صاحب المناو - معصية لله - تعالى ، خالف فيها أمره أو نهيه ، وإنما كانت خطأ في اجتهد رأي بنية صالحة .

ولما عدها الله - تعالى - ذنبا له لأنها كانت دون مقام العلم الصحيح اللائق بمنزلته من ربه . هبطت بضعفه البشري ، وما غرس في الفطرة من الرحمة

والرافة بالأولاد إلى إقباغ الظن . ومثل هذا الاجتهاد لم يعصم منه الأنبياء ،
فيقرن فيه أحيانا فيشعروا بحاجتهم إلى تأديب ربهم وتسكيله لإبائهم آنا بعدآن ،
بما يصعدون به في معارج العرفان ،^(١) .

هـ - إن القرآن في إيراد القصص والأخبار ، لا يهتم إلا بإبراز النافع
المفيد منها ، أما ما عدا ذلك مما لا فائدة من ذكره ، فيهمل القرآن الحديث عنه .
فتشلا في قصة نوح - عليه السلام - هنا ، لم يتعرض القرآن لبيان المدة التي
قضاها نوح في صنع السفينة ، ولا لبيان طول السفينة وعرضها وارتفاعها ،
ولا لتفاصيل الأنواع التي حملها معه في السفينة ، ولا لبيان الفترة التي عاشها
نوح ومن معه فيها ...

ولا لبيان المكان الذي هبط فيه نوح بعد أن استوت السفينة على
الجودي ... ولا لبيان الزمان الذي استغرقه الطوفان فوق الأرض ..
وما ورد في ذلك من أقوال وأخبار ، أكثرها من الإسرائيليات التي
لا يؤيدها دليل من الشرع أو العقل .

ومن المسائل التي تكلم عنها كثير من العلماء ، وذهبوا بشأنها مذاهب شتى
مسألة الطوفان .

وقد أصد الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده - رحمه الله - فتوى في هذا
الشأن ، ملخصها كما يقول صاحب المنار : أن ظواهر القرآن والأحاديث أن
الطوفان كان عاما شاملا لقوم نوح الذين لم يكن في الأرض غيرهم فيجب
اعتقاده ، ولما لا يقتضي أن يكون عاما للأرض ، إذ لا دليل على أنهم كانوا
يملأون الأرض ...

ومذه المسائل التاليجية ليست من مقاصد القرآن ، ولذلك لم يبينها بنص
قطعي ، فنحن نقول بما تقدم لأنه ظاهر النصوص ، ولا نتخذة عقيدة دينية
قطعية ، فإن أثبت العلم خلافه لا يضرنا ، لأنه لا ينقض فصا قطعيا عندنا^(٢) .

٦ - أن سنة الله - تعالى - في خلقه لا تتخلف ولا تبدل وهي أن العاقبة للمتقين ، مهما طال الصراع بين الحق والباطل ، وبين الأخيار والأشرار . فلقد مكث - عليه السلام - في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وقد لقي خلال تلك المدة الطويلة ما لقي من الأذى ... ولكن كانت النتيجة في النهاية نجاته ومن معه من المؤمنين ، وإغراق أعداء بالطوفان العظيم .

ولقد أفاض صاحب الظلال - رحمه الله - وهو سيتحدث عن هذا المعبر فقال ماملا بخصه : (ثم تقف الوتفة الأخيرة مع قصة نوح ، لنرى قيمة الحفا المسلمة في ميزان الله - سبحانه - .

إن حفنة من المسلمين من أتباع نوح - عليه السلام - تذكر بعض الروايات ، أنهم اثنا عشر ، هم كانوا حصيلة دعوة نوح في ألف سنة إلا خمسين عاما ...

إن هذه الحفنة ، - وهي ثمرة ذلك العمر الطويل والجهد الطويل - ، استحققت أن يغير الله لها المألوف من ظواهر هذا الكون ، وأن يجري لها ذلك الطوفان الذي يغمر كل شيء وأن يجعل هذه الحفنة وحدها وراثته الأرض بعد ذلك ، وبذرة العمران فيها ... وهذه هي عبرة الحادث الكوني العظيم ..

لأنه لا ينبغي لأحد يواجه الجاهلية بالإسلام ، أن يظن أن الله تبارك وتعالى للجاهلية وهو يدعو إلى إفرااد الله - سبحانه - بالربوبية . كما أنه لا ينبغي له يقيس قوته الذاتية إلى قوى الجاهلية فيظن أن الله تبارك وتعالى لهذه القوى ، وعبده الذي يستنصر به حين يغلب فيدعوه : (أنى مغلوب فانتصر) .

إن القوى في حقيقتها ليست متكافئة ولا متقاربة .. إن الجاهلية كما قواها .. ولكن الداعى إلى الله يستند إلى قوة الله . والله يملك أن يسخر بعض القوى الكونية - حينما يشاء وكيفما يشاء - ، وأيسر هذه القوى يد على الجاهلية من حيث لا تحسب !!

والذين يسلكون السبيل إلى الله ليس عليهم إلا أن يؤدوا واجبهم كاملاً ، ثم يتركوا الأمور لله في طمأنينة وثقة . وعندما يغلبون عليهم أن يلجأوا إلى الناصر المعين ، وأن يحاروا إليه وحده كما جاز عبده الصالح نوح : (فعازبه أنى مغلوب فانتصر) ...

ثم عليهم أن ينتظروا فرج الله القريب ، وانتظار الفرج من الله عباده ، فهم على هذا الانتظار مأجورون ... والعاقبة للمتقين (١) .
ثم تابعت السورة الكريمة حديثها عن قصة هود - عليه السلام - مع قومه ، بعد حديثها عن قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، فقال - تعالى - :

« وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهِ غَيْرُهُ ، إِنِّي أَنُتِمَ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنِّي أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مَجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ، وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنَّا نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ، قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مَن دُونِهِ فَكَيْدُونِي جِئِمًا ثُمَّ لَا تُنظِرُون (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنِّي رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ، إِنِّي رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ (٥٧) وَإِنَّمَا جَاءَ أَمْرُنَا نَجِيتَ هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةِ رَبِّهِمْ فَهَـٰؤُلَاءِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥٨) »

(١) في ظلال القرآن ج ١٢ ص ٨٥ الأستاذ سيد قطب .

مَنَّا ، وَنَجِّنَا هُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ آيَاتُ رَبِّهِمْ
وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ . أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلَا بُعْدًا لِعَادِ
قَوْمِ هُودٍ (٦٠) .

تلك هي قصة هود - عليه السلام - مع قومه كما حكمتها هذه السورة ، وقد
وردت قصته معهم في سور أخرى منها : سورة الأعراف ، والشعراء ،
والأحقاف ...

وينتهي نسب هود إلى نوح - عليهما السلام - فهو - كما قال بعض المؤرخين - :
هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوض بن لمر بن سام
ابن نوح (١) .

وقومه هم قبيلة عاد - نسبة إلى أبيهم الذي كان يسمى بهذا الاسم - ،
وكانت مساكنهم بالأحقاف - جمع حقف وهو الرمل الكثير المائل - ،
وهذا المكان يسمى الآن بالربع الخالي جنوب الجزيرة العربية .

وكان قوم هود - عليه السلام - يعبدون الأصنام ، فأرسله الله
إليهم لهدايتهم .

ويقال إن هودا - عليه السلام - قد أرسله الله إلى عاد الأولى ، أما
عاد الثانية فهم قوم صالح ، وبينهما زهاء مائة سنة .

وقوله - سبحانه - : « وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم
من إله غيره ... » معطوف على قصة نوح التي سبق الحديث عنها .
أي : وكما أرسلنا نوحا إلى قومه يأمرهم بعبادة الله وحده . أرسلنا إلى

(١) قصص الأنبياء ص ٥٠ لفضيلة الشيخ عبد الوهاب البخار .

قبيلة عاد أخاهم هوداً ، فقال لهم ما قاله كل نبي لقومه : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .

ووصفه - سبحانه - بأنه « أخاهم » لأنه من قبيلتهم في النسب ، أو لأنه أخوهم في الإنسانية وناداهم بقوله : « يا قوم » زيادة في التلطف معهم ، إستجلاباً لقلوبهم ، وترصيه لنفوسهم ، وجملة « ما لكم من إله غيره » في معنى العلة لما قبله .

أى : أيا آلهكم بعبادة الله وحده ، لأنه ليس هناك إله آخر يستحق العبادة سواه ، فهو الذى خلقكم ورزقكم ، وهو الذى يحييكم ويميتكم ...
ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « إن أنتم إلا مفترون » ،
والافتراء : الكذب المتعمد الذى لاشبهة لصاحبه فى النطق به .

أى : ما أنتم إلا متعمدون للكذب فى جعلكم الألوهية لغير الله - تعالى .
ثم بين لهم بعد ذلك أنه لا يريد منهم جزاء ولا شكورا فى مقابل دعوة إلههم إلى الحق فقال : « يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجزى إلا عا
الذى فطونى »

وفطرني : أى خلقنى وأبدعنى على غير مثال سابق . يقال : فطر الأمر أى : ابتدأه وأنشأه . وفطر الله الخلق : أى خلقهم وأوجدهم . وأصل الفطر الشق ، ثم استعمل فى الخلق والإنشاء مجازا .

والمعنى : ويا قوم لا أريد منكم على ما أدعوكم إليه أجرا منكم ، وإنما أجرى تكفل به الله الذى خلقنى بقدرته ، فهو وحده الذى أطلب منه الأجر والعطاء ...

ومقصده من هذا القول ، إزالته ما عسى أن يكون قد حاك فى نفوسهم من أنه مادعاهم إلى مادعاهم إليه ، إلا لأنه رجل يبتغى منهم الأجر الذى يجوسرا فيهم ...

والهمزة في قوله « أفلا تعقلون » للإستفهام الإنكارى ، وهى داخله على محذوف .

أى : أتجهلون ماهو واضح من الأمور ، فلا تعقلون أن أجر الناصحين المخلصين ، إنما هو من الله - تعالى - رب العالمين ورازقهم .

ثم أرشدكم إلى ما يؤدى إلى زيادة غناهم وقوتهم ، وحذرهم من سوء عاقبة البطر والاشرفقال : ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين .

والاستغفار : طلب المغفرة من الله - تعالى - وعدم المواقظة على الخطايا والتوبة : العزم على الإقلاع عن الذنب ، مع الندم على ما حصل منه فى الماضى .
أى : ويا قوم استغفروا ربكم عما فرط منكم من شرك وعصيان ، ثم عودا إليه بالتوبة الصادقة التصوح .

وتم هنا للترتيب الرتبى ، لأن الإقلاع عن الذنب مع المداومة على ذلك مقدم على طلب المغفرة .

وجملة « يرسل السماء عليكم مدرارا » جواب الأمر فى قوله « استغفروا » . والمراد بالسماء هنا السحاب أو المطر ، تسمية للشيء باسم مصدره .

ومدرارا : مأخوذ من الدر أى : سيلات اللبن وكثرته . ثم استعير للمطر الغزير . يقال : درت السماء بالمطر تدر وتدر درا ... إذا كثرت زول المطر منها .

وهو حال من السماء ، ولم يؤنث مع أنه حال من مؤنث ، باعتبار أن المراد بالسماء هنا المطر أو السحاب .

والمعنى : أن هوذا - عليه السلام - قال لقومه يا قوم اعبدوا الله واستغفروا وتوبوا إليه ... فإنكم إن فعلتم ذلك أرسل الله - تعالى - عليكم المطر غزيرا متتابعا فى أوقات حاجتكم إليه ، لتشربوا منه وتسقوا به دوابكم وزروعكم .
وجملة « ويزدكم قوة إلى قوتكم » معطوفة على ما قبلها .

أى : وايضا إن فعلتم ذلك زادكم الله - تعالى - عزاً إلى عزكم ، وشدة إلى شدتكم التى عرفتم بها ، ووهبكم الأموال الطائلة ، والذرية الكثيرة ...

قال الألوسى : ورغبهم - عليه السلام - بكثرة المطر ، وزيادة القوة ، لأنهم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات . وقيل : حبس الله عنهم القطر وأعظم أرحام نسائهم ثلاث سنين ، فوعدهم هود على الاستغفار والتوبة كثرة الأمطار ، ومضاعفة القوة بالتناسل ... (١)

ثم حذرهم من مقابلة نعم الله بالكفر والجحود فقال : « ولا تتولوا مجرمين .. والتولى : هو الإعراض عن الشئ - بإصرار وعناد .

أى : ولا تتولوا عما دعوتكم إليه وأقم مصررون على ما أقم عليه من لإجرام وجحود وعناد .

وإلى هنا يكون هود - عليه السلام - قد وضع لقومه دعوته ، ورغبهم فى الاستجابة لها ، وحذرهم من الإعراض عنها ، وفاداهم بلفظ - يا قوم - ثلاث مرات ، ترددوا إليهم ، وتذكيرا لهم بأصرة القرابة التى تجمعهم وإياه . لعل ذلك يستثير مشاعرهم ، ويعقق لطمأناتهم إليه ، فإن الرائد لا يكذب أهله .
ولسكن قوم هود - عليه السلام - قابلو كل ذلك بالتطاول عليه ، والسخرية منه فقالوا : « قالوا ياهود ما جئتنا ببينة ... »

والبينة : ما يثبت به الحق من الباطل . أى : قالوا له ياهود انك لم تجئنا ببينة تغنينا بأنك على الحق فيما تدعوا اليه ، وترضى نفوسنا وطباعنا وعاداتنا ...
ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : « وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك » .
أى : وما نحن بتاركى آلهتنا بسبب قولك لنا الخالى عن الدليل : انركوا عبادتها واجعلوا عبادتكم لله وحده .

ثم أكدوا لإصرارهم على كفرهم بقولهم : « وما نحن بمؤمنين ، أى : مستجيبين لك ومصدقين .

ثم أضاقوا إلى إصرارهم هذا . استخفافا به وبما يدعو إليه فقالوا : إن
نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء

ومعنى اعتراك : أصابك ومسك . يقال عراه الأمانة واعتراه أى أصابه .
وأصابه من قوطم : عراه يعروه ، أى : غشيه وأصابه . ومنه قول الشاعر :

وإنى لتعرونى لذكراك هزة . . . أى نصيبنى . .

أى : أى مانحن بتناكى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمتبعين ، بل عليك
أن قياس يأسا تاما من استجابتنا لك ، وحالتك التى نراها بأعيننا تجعلنا نقول
لك : إن سبك لآلهتنا جعل بعضها - لا كلها - يتسلط عليك ، ويوجه قدرته
نحوك ، فيصيبك بالجنون والهذيان والأمراض . . .

ولم يقولوا : واعتراك آلهتنا بسوء ، بل قالوا : بعض آلهتنا ، تهديدا له
وإشارة إلى أنه لو تصدت له جميع الآلهة لأهلكته إهلاكا .

وهكذا تراهم قد ردوا على فيهم ومرشدهم بأربعة ردود ، تدرجوا فيها
من اسم إلى الأسوأ ، ومن القبيح إلى الأقبح . . مما يدل على توغلهم في
الطغيان ، وبلوغهم النهاية في العناد والكفر والجحود

قال صاحب الكشف ما ملخصه : (ان نقول الا اعتداك بعض آلهتنا
بسوء . . .)

أى : مسك بجنون لسبك إياها ، وعداوتك لها ، مكافأة
لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء . فمن ثم صرت تنكلم بكلام المجانين
نوتهدى بهذيان المبرمين

ثم قال . وقد دلت ردودهم المتقدمة على أن القوم كانوا جفاة غلاظ
الأكباد ، لا يبالون بالبهت ، ولا يلتفتون إلى النصيح ، ولا تلين شكبتهم
للرشد .

وهذا الأخير دال على جهل مفرط ، وبله متناه ، حيث إعتقدوا فى حجارة

أنها تنتصر وتنتقم) (١)

والآن وبعد أن استمع هود - عليه السلام - إلى ردودهم القبيحة ماذا كان موقفه منهم ؟

لقد كان موقفه منهم : موقف المتبري - من شرهم - والمتحدى لطغيانهم والمعتد على الله - تعالى - وحده في الانتصار عليهم ، ولقد حكى القرآن رده عليهم فقال :

(قال إني أشهد الله وأشهدوا أني برىء مما تشركون . من دونه ، فمكيدوؤ جميعا ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربي على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت إليكم ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضررونه شيئا ، إن ربي على كل شئ حفيظ .)

أي : قال هود - عليه السلام - للطغاة من قومه بعزة وثقة (إني أشهد الله) الذي لا رب سواه على براءتي من عبادتكم لغيره .

(وأشهدوا) أنتم أيضا على (أني برىء مما تشركون من دونه) أي : على براءتي من كل عبادة تعبدونها لغير الله - تعالى - لأنها عبادة باطلة ، يحتقرها العقلاء ، ويتنزه عنها كل إنسان يحترم نفسه .

فأنت تراه في هذه الآية الكريمة يعلن إحتراره لألهتهم ، وبراءته من شرهم ، واستخفافه بأصنامهم التي زعموا أن بعضها قد أصابة بسوء ، ويؤا هذه البراءة بإشهاد الله - تعالى - وإشهادهم .

وذلك كما يقول الرجل لخصمه إذا لم يبال به : أشهد الله وأشهدك : أني فعلت بك كذا وكذا ، وقلت في حقك كذا وكذا . . . فافعل أذا ما بدا لك !!

ثم ينتقل من براءته من شركهم ، إلى تحديهم بثقمة وإطمئنان فيقول :
(فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون)

أى : لقد أعلنت أمامكم بكل قوة ووضوح أنى برىء من شرككم ،
وما قد افى مواجعتكم ، فأنضموا إلى آلهتكم ، وحاربوني بما شئتم من ألوان
المحاربة والأذى بدون تربث أو إهمال ، فإننى لن أكف عن الجهر بدعوتهم ،
ولن أراجع عن احتقار الباطل الذى أنتم عليه .

وهذا — كما يقول صاحب الكشف — من أعظم الآيات ، أن يواجه
بهذا الكلام رجل واحد أمة عظاما إلى إراقة دمه ، يرموته عن قوس واحدة
وذلك لشقته بربه ، وأنه يعصمه منهم ، فلا تنشب فيه مخالفتهم . . . (١)

ثم ينتقل بعد ذلك إلى بيان السبب الذى دعاه إلى البراءة من شركهم ، وإلى
عدم المبالاة بهم فقال — كما حكى القرآن عنه — (إني توكلت على الله ربي
وربكم . . .)

أى : إني فوضت أمرى إلى الله الذى هو ربي وربكم ، ومالك أمرى
وأمركم ، والذى لا يقع فى هذا الكون شيء إلا بإرادته ومشيئته .

وفى قوله : (ربي وربكم) مواجهة لهم بالحقيقة التى ينكرونها ، لإفهامهم
أن انكارهم لا قيمة له ، وأنه انكار عن جحود وعناد . . . فهو — سبحانه —
رهم سواء أقبلوا ذلك أم رفضوه . وقوله (مامن دابة الا هو آخذ بما صيئتها)
تصوير بديع لشمول قدرته — سبحانه — والأخذ : هو التناول للشيء عن
طريق الغلبة والقهر .

والناسية : منبت الشعر فى مقدم الرأس ، ويطلق على الشعر النابت نفسه .
قال الإمام الرازى : وأعلم أن العرب اذا وصفوا انسانا بالذلة والخضوع
قالوا : ما صية فلان الا بيد فلان . أى أنه مطيع له ، لأن كل من أخذت

بناصيده فقد قهرته . وكانوا اذا أسروا أسيرا وأرادوا إطلاقه جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره فخطبوا في القرآن بما يعرفون (١) (١٠٠٠)

والمعنى : انى اعتمدت على الله ربي وربكم : ما من دابة تدب على وجه الأرض الا والله - تعالى - مالكم وقاهر لها ، وقادر عليها ، ومتصرف فيها كما يتصرف المالك في مملكته .

وفي هذا التعبير الحكيم صورة حسية بديعة تناسب المقام ، كما تناسب غلظة قوم هود وشدتهم . وصلاية أجسامهم وبنيتهم ، وجفاف حسهم ومشاعرهم ... فكانه - عليه السلام - يقول لهم : انكم مهما بلغتكم من القوة والبطش ، فإني أفتن الا دواب من تلك الدواب التي يأخذ ربي بناصيتها ، ويقهرها بقوته قمرأ يهلكها - اذا شاء ذلك - فكيف أخشى دوابا مثلكم مع توكلنى على الله ربي وربكم ١١٩

ثم يتبع هذا الوصف الدال على شمول قدرة الله - تعالى - بوصف آخر يدل على عدالته وتنزهه عن الظلم فيقول : (ان ربي على صراط مستقيم) أى : ان ربي قد اقتضت سنته أن يسلك فى أحكامه طريق الحق والعدل وما دام الأمر كذلك فلن يسلطكم على لأنه - حاشاه - أن يسلط من كان متمسكا بالباطل ، على من كان متمسكا بالحق .

واكتفى هنا بإضافة الرب إلى نفسه ، للإشارة إلى أن لطفه - سبحانه - يشمل هودا وحده ولا يشملهم ، لأنهم أشر كوا معه فى العبادة آلهة أخرى . ثم ختم هود - عليه السلام - رده على قومه ، بتحذيرهم من سوء عاقبة إصرارهم على كفرهم فقال : (فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ١٢٠)

أى : فإن تولوا عن دعوتى ، وتعرضوا عن الحق الذى جئتكم به من عند ربي . فتكون عاقبتكم خسرا ، وأمركم فرطا .

أما أنا فقد أدبت واجبي ، وأبلغتكم ما أرسلت به إليكم من عند ربي بدون تكاسل أو تقصير : وقرله (ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضروته شيئا) وعيد لهم بإهلاكهم وإحلال غيرهم محلهم .

أى : وهو - سبحانه - سبب إصراركم على كفركم في الوقت الذى يشاءه ، ويستخلف من بعدكم قوما آخرين سواكم ، يرثون دياركم وأموالكم ، ولن تضروا الله شيئا من الضر بسبب إصراركم على كفركم ، وإنما أنتم الذين تهترون أنفسكم بتعريضها للدمار فى الدنيا ، وللعذاب الدائم فى الآخرة .

وقوله : إن ربي على كل شيء حفيظ ، أى : إن ربي قائم على كل شيء بالحفظ والرعاية والاهمية ، وقد اقتضت سنته - سبحانه - أن يحفظ رسله وأوليائه ، وأن يخذل أعداءه .

والى هذا تكون السورة السكرية قد ساقنا لنا بأسلوب بليغ حكيم ، جانبا من الحوار الذى دار بين هود وقومه وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، فإذا كانت نتيجة هذا الحوار والجidal ؟

لقد كانت نتيجة إنجاء هود والذين آمنوا معه ، وإهلاك أعدائهم . قال - تعالى - ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ، ونجيناهم من عذاب غايظ ، وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسوله واتبعوا أمرا كل جبار عنيد . وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود .

والمراد بالأمر فى قوله - سبحانه - ولما جاء أمرنا ، الأمر بنزول العذاب بهم .

أى : وحين جاء أمرنا بتحقيق وعيدنا فى قوم هود ، وبتنفيذ ما أردناه من إهلاكهم وتدميرهم ، نجينا هودا والذين آمنوا معه ، نتيجة مصحوبة برحمة ، عظيمة كائنة منا ، بسبب إيمانهم وعملهم الصالح .

« ونجيناكم ، كذلك » من عذاب غليظ ، أى : من عذاب منكم شديد هذا دفع
رك هؤلاء الطغاة وراه صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية .

ووصف العذاب بأنه غليظ ، بهذا التصوير المحسوس ، يتناسب كل التناسب
مع جو هذه القصة ، ومع ما عرف عنه قوم من ضخامة فى الأجسام ، ومن
تفاخر بالقوة ..

قال - تعالى - « فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من
أشد منا قوة ... » (١)

وكان عذابهم كما جاء فى آيات أخرى بالريح العقيم ، ومن ذلك قوله
- تعالى - « وأما عاد فآذوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال
وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية .. »

واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - « وتلك عاد ... » يعود إلى القبيلة
أو إلى آثارهم التى خلفوها من بعدهم . أى : وتلك هى قصة قبيلة عاد مع نبيها
هود - عليه السلام - وتلك هى عاقبتهم . وكانت الإشارة للبعيد تحقيرا لهم ،
وهو ينافى شأنهم بعد أن انتهوا ، وبعدوا عن الأنظار والأفكار ، وقد كانوا
يقولون : من أشد منا قوة ..

وقوله : « جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار
عنيد ... » بيان لجرائمهم التى استحقوا بسببها العذاب الغليظ .

والجحد : الإنكار الشديد للحق الواضح .

وآيات ربهم : الحجج والبراهين التى جاء بها الأنبياء من ربهم للدلالة
على صدقهم .

والجبار : هو الشخص المتعالى المتعظم على الناس ، المترفع عن
الاستجابة للحق .

والأمنيد : المعاند الطاغى الذى يعرف الحق ولكنه لا يتبعه .

أى : وتلك هى قصة قبيلة عاد مع نبيها ، كفروا بآيات ربهم الدالة على صدق أنبيائهم ، وعصوا رسله الذين جاءوا لهدايتهم ، واتبع سفلتهم وعوامهم أمر كل رئيس متجبر متكبر معاند منهم ، بدون تفكير أو تدبر .

وقال - سبحانه - : وعصوا رسله ، مع أنهم قد عصوا رسولا واحدا هو هود - عليه السلام - ، للإشارة إلى أى معصيتهم لهذا الرسول كأنها «معصية للرسول جميعا» ، لأنهم قد جاءوا برسالة واحدة فى جوهرها وهى : عبادة الله تعالى - وحده ، والتقيد بأوامره ونواهيه .

والإشارة أيضا إلى ضخامة جرائمهم ، وإبراز شنائعهم حيث عصوا رسلا لا رسولا :

وقد وصفهم - سبحانه - فى هذه الآية بثلاث صفات هى أعظم الصفات فى القبح والشناعة : أولها : جحودهم بآيات ربهم ، وثانيها : عصيانهم لرسله . وثالثها : اتباعهم أمر رؤسائهم الطغاة .

ثم ختم - سبحانه - قصتهم مع نبيهم فى هذه السورة بقوله : : واتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ... ،

والاتباع : اقتفاء أثر الشيء ببحث لا يفوته . يقال : اتبع فلان فلانا إذا اقتفى أثره - أى بدركه أو يسير على نهجه .
واللعنة : الطرد بإهانة وتحقير .

أى : أنهم هلكوا مشيعين ومتبوعين باللعن والطرد من رحمة الله فى الدنيا والآخرة .

وقوله : : ألا ان عادا كفروا ربهم ، ألا بعدا لعاد قوم هود ، تسجيل لحقيقة حالهم ، ودعاء عليهم بدوام الهلاك ، وتأكيدهم لخطأ الله عليهم .
أى : ألا ان قوم عاد كفروا بنعم ربهم عليهم ، ألا سحقا وبعدا لهم عن

رحمة الله ، جزاء جحودهم للحق ، وإصرارهم على الكفر ، واستجابهم العمى على الهدى .

وتكرير حرف التنبيه «ألا» ، وإعادة لفظ دعاء ، للدباغة في تهويل حالهم وللحوض على الاعتبار والاتعاظ بما آلمهم .

هذا ، ومن العبر البارزة في هذه القصة :

١ - أن الداعى إلى الله ، عليه أن يذكر المدعويين بما يستثير مشاعرهم ، ويحقق إضمئنانهم إليه ، ويرغبهم في اتباع الحق ، ببيان أن اتباعهم لهذا الحق سيؤدى إلى زيادة غناهم وقوتهم وأمنهم وسعادتهم

وأن الاحراف عنه سيؤدى إلى فقرهم وضعفهم وهلاكهم

انظر إلى قول هود - عليه السلام - : « يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا الجرمين » .

٢ - أن الداعى إلى الله - تعالى - عندما يخلص لله دعوته ، ويعتمد عليه - سبحانه - في تبليغ رسالته ، ويقار عليها كما يقار على عرضه أو أشد ...

فإنه في هذه الحالة سيقف في وجه الطغاة المناوئين للحق ، كالطود الأشم ، دون مبالاة بتهديدهم ووعيدهم ... لأنه قد آوى إلى ركن شديد .

وهذه العبرة من أبرز العبر في قصة هود عليه السلام -

ألا تراه وهو رجل فرد يواجهه قوما غلاظا شدادا طغاة ، إذا بطشوا بطشه ، جبارين ، يدلون بقوةهم ويقولون في زهو وغرور : من أشد منا قوة .

ومع كل ذلك عندما يتطاولون على عقيدته ؛ ويراهم قد أصروا على عصيانه .

يواجههم بقوله : « إني أشهد الله وأشهدوا أنى برىء مما تشركون . من

دونه فمكيدنى جميعا ثم لا تنظرون ... »

أرأيت كيف واجه هودا - عليه السلام - هؤلاء الغلاظ الشداد بالحق
الذي يؤمن به دون مبالاة بوعيدهم أو تهديدهم ؟
وهكذا الإيمان بالحق عندما يختلط بالقلب يجعل الإنسان يجهر به
دون أن يخشى أحداً إلا الله - تعالى -

ثم واصلت السورة الكريمة حديثها عن قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم
فتحدثت عن قصة صالح - عليه السلام - مع قومه ، فقال - تعالى -

« وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُ ، هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ، فَاسْتَفِرُّوهُ ثُمَّ تَوْبُوا
إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا
قَبْلَ هَذَا ، أَتَنهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَمُودُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا فِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا
إِلَيْهِ مُرِيبٌ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ إَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنِينَةٍ مِّنْ رَبِّي ،
وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ فَمِنْ يُنصِرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ
تَخْسِيرٍ (٦٣) وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَافَةٌ لَّكُم آيَةٌ ، فَذَرُوهَا تَاكُلْ فِي الْأَرْضِ
اللَّهُ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ
تَتَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا
تَجَمَّنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيٍ يُؤْتَيْنِ ، إِنْ
رَبُّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي
دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَفْنَوْا فِيهَا ، أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ
أَلَا بُدًّا لِّلْثَمُودِ (٦٨) »

هذه قصة صالح - عليه السلام - مع قومه كما ذكرتها هذه السورة ، وقد
وردت هذه القصة في سور أخرى منها سورة الأعراف ، والشعراء ،
والنمل ، والقمر . .

وصالح - عليه السلام - ينتهى نسبه إلى فوج - عليه السلام - فهو صالح بن عيرد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود ... بن فوج .

وثمود : اسم للقبيلة التى منها صالح ، سميت باسم جدها ثمود ، وقيل سميت بذلك لقلة ماؤها ، لأن الثمد هو الماء القليل .

وكانت مساكنهم بالحجر - بكسر الحاء وسكون الجيم - وهو مكان يقع بين الحجاز والشام إلى وادى القرى ، وموقعه الآن - تقريبا - المنطقة التى بين الحجاز وشرق الأردن ، وما زال المكان الذى كانوا يسكنونه يسمى بمدائن صالح - حتى اليوم . . .

وقبيلة صالح من القبائل العربية ، وكافروا خلفاء لقوم هود - عليه السلام فقد قال - سبحانه - : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا ، وتنحتون الجبال بيوتا ... » (١)

وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله - تعالى - إليهم صالحا ليأمرهم بعبادة الله وحده .

وفوله : « وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ... » ، معطوف على ما قبله من قصتى نوح وهود - عليهما السلام -

أى : وأرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم فى النسب والموطن صالحا - عليه السلام فقال لهم تلك الكلمة التى قالها كل نبي لقومه : يا قوم اعبدوا الله وحده ، فهو الإله الذى خلقكم ورزقكم ، وليس هناك من إله سواه يفعل ذلك .

ثم ذكرهم بقدرة الله - تعالى - وبنعمة عليهم فقال : « هو أنمأكم من الأرض واستعمركم فيها ، »

والإنشاء : الإيجاد والإحداث للشيء على غير مثال سابق .

. ولستمعركم من الإعمار ضد الخراب فالسين والثاء للبالغه . يقال : أعمر فلان فلاناً في المكان ولستمعمره ، أى جعله يعمره بأنواع البناء والفرس والزروع . . .

أى : اعبدوا الله - تعالى - وحده ، لأنه - سبحانه - هو الذى أبتدأ خلقكم من هذه الأرض ، وأبوكم آدم ما خلق إلا منها وهو الذى جعلكم المعمرين لها ، والساكين فيها ، تمنحون من سهولها قصوراً ، وتمنحون الجبال بيوتاً . . .

قال - تعالى - فى شأنهم . ، أتركون فيما ها هنا آمنين . فى جنات وعيون . وزروع ونخل طالعها هضيم . وتمنحون من الجبال بيوتاً فارهين . فاتقوا الله وأطيعون . . (١)

فأنت ترى أن صالحاً - عليه السلام - قد ذكرهم بجانب من مظاهر قدرة الله ومن أفضله عليهم ، لىكى يستميلهم إلى التفكير والتدبير ، وإلى تصديقه فيما يدعوهم إليه .

والفاء فى قوله : فاستغفروه ثم توبوا إليه ، للتفريع على ما تقدم .

أى : إذا كان الله - تعالى - هو الذى أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فعليكم أن تخلصوا له العبادة . وأن تطلبوا مغفرته عما سلفه منكم من ذنوب ثم توبوا إليه توبة صادقة : تجعلكم تندمون على ما كان منكم فى الماضى من شرك وكفر ، وتعزمون على التمسك بكل ما يرضى الله - تعالى - فى المستقبل .

ثم فتح أمامهم باب الأمل فى رحمة الله - تعالى - فقال : إن ربي قريب مجيب . .

أى : لمن ربي قريب الرحمة من المحسنين ، مجيب لدعاء الداعين المخلصين ،
فاقبلوا على عبادته وطاعته ، ولا تقنطوا من رحمة الله .

ثم حكى القرآن ما رد به قوم صالح عليه فقال : قالوا يا صالح قد كنت
فينا مرجوا قبل هذا .. ،

أى : قال قوم صالح له بعد أن دعاهم لما يسعدهم : يا صالح لقد كنت فينا
رجلا فاضلا نرجوك لمهمات الأمور فينا لعلك وعقلك وصدقك .. قبل أن
تقول ما قلته ، أما الآن وبعد أن جئتنا بهذا الدين الجديد فقد خاب رجاؤنا
فيك ، وصرت في رأبنا رجلا مختل التفكير ...

فالإشارة في قوله : قبل هذا ، إلى الكلام الذي خاطبهم به حيث بعشه
الله إليهم .

والاستفهام في قولهم : أنها لنا أن نعبد ما يعبد آباؤنا للتعجيب ، والإنكار .
أى : أجتئنا بدعوتك الجديدة لتنتهانا عن عبادة الآلهة التي كان يعبدونها
آباؤنا من قبلنا ؟

لا ، إنما لن نستجيب لك ، وإنما نحن قد وحدنا آباءنا على دين ولا نتعالى
آثارهم نسير .

ثم ختموا ردهم عليه بقولهم : ولما لنا في شك مما تدعوننا إليه مريب .
ومريب : اسم فاعل من أراب . تقول : أربت فلانا فأنا أربيه ، إذا فعلت
به فملا يوجب لديه الريبة أى : القلق والاضطراب .

أى : لن نترك عبادة الأصنام التي كان يعبدونها آباؤنا ، ولما لنا في شك
كبير ، وريب عظيم من صحة ما تدعوننا إليه .

فانظر كيف قابل هؤلاء السفهاء الدعوة إلى الحق بالتصميم على الباطل ،
ولكن صالحا - عليه السلام - لم ييأس بل يرد عليهم بأسلوب حكيم فيقول :

د قال يا قوم أرأيتم إن كنتم على بينة من ربي ، وآتاني منه رحمة ، فمن
ينصرنى من الله إن عصيته ، فما يزيدونى غير تخسير ،

أبى قال صالح - عليه السلام - لقومه : يا قوم أخبروني إن كنت على حجة واضحة من ربى ومالك أمرى .
وآتاني منه رحمة ، أبى : وأعطاني من عنده لا من عند غيره رحمة عظيمة حيث اختارنى لحمل رسالته . وتبليغ دعوته .
وجملة : فمن ينصرنى من الله إن عصيته ، جواب الشرط وهو قوله : إن كنت على بينة ...

أبى : إذا كان الله - تعالى - قد منحنى كل هذه النعم . وأمرنى بأن أبلغكم دعوته ، فمن ذا الذى يحيرنى ويصمى من غضبه ، إذا أنا خالفت أمره أو قصرت فى تبليغ دعوته ، احتفاظا برجائكم فى ، ومسايرتى لكم فى باطلكم ؟ لا ، لأننى سأستمر فى تبليغ ما أرسلت به إليكم ، ولن يمتنعنى عن ذلك ترغيبكم أو تهيبكم .

وقوله : فما تزيدونى غير تخسير ، تصريح منه بأن ما عليه هو الحق الذى لا يقبل الشك أو الريب ، وأن مخالفته توصل إلى الهلاك والخسران .
والتخسير : مصدر خسر . يقال خسر فلان فلانا إذا نسبه إلى الخسران .
أبى : فما تزيدونى بطاعتكم ومعصية ربى غير الوقوع فى الخسران ، وغير التعرض لعذاب الله وسخطه ، وحاشاى أن أخالف أمر ربى لإرضاء لكم ..
فالآية الكريمة تصور تصويرا بليغا ما كان عليه صالح - عليه السلام - من الإيمان عميق بالله - تعالى - ، ومن ثبات على دعوته ، ومن حرص على ضلته - سبحانه -

ثم أورد صالح - عليه السلام - إلى المعجزة الدالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه فقال :

ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية ... ، أبى : معجزة ، واضحة دالة على صدق وفى إضافة الناقة إلى الله - تعالى - تعظيم لها وتشريف لحالها ، وتذية على (٨ - سرور هود)

أنها ناقة مخصوصة ليست كغيرها من النوق التي تستعمل في الركوب والنحر وغيرهما . لأن الله - تعالى - قد جعلها معجزة لنبيه صالح - عليه السلام - ولم يجعلها كغيرها .

وقد ذكر بعض المفسرين من صفات هذه الناقة وخصائصها . ما : يؤيده نقل صحيح ، لذا أضربنا عن كل ذلك صفحا ، ونكتفي بأن نقول : بأنها كانت ناقة ذات صفات خاصة بميزة ، تجعل قوم صالح يعلمون عن طريق هذا التمييز لها عن غيرها أنها معجزة دالة على صدق قبيلهم - عليه السلام - فيما يدعون إليه .

وقوله : « فذروها تأكل في أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب » ، أمر لهم بعدم التعرض لها بسوء وتحذير لهم من نتائج مخالفة أمره . أى : اتركوا الناقة حرة طليقة تأكل في أرض الله لتواسعة ، ومن رزقه الذى تكفل به لكل دابة ، واحذروا أن تمسوها بسوء . من سوء مما كان قليلا ، فإنكم لو فعلتم ذلك عرضتم أنفسكم لعذاب الله العاجل القريب . والتعبير بقوله « فيأخذكم » بفاء التعقيب ولفظ الأخذ ، يفيد سرعة الأخذ وشدته ، لأن أخذه - سبحانه - أليم شديد .

ولكن قوم صالح - عليه السلام - لم يستمعوا إلى تحذيره ، بل قابلوه بالطغيان والعصيان ، « فمقروها » أى : فمقروا الناقة « وعوتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح اتقنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين » (١) .

والفاء معطوفة على محذوف : أى مخالفا لما نهاهم عنه نبيهم فمقروها أى نحروها وأصل المقر : قطع عرقوب البعير ، ثم استعمل في النحر لأن ناجر البعير يعقله ثم ينحره فقال لهم صالح - عليه السلام - بعد عقربها « تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب » .

والتمتع : الاتمتاع بالمتاع ، وهو اسم لما يحتاج اليه الإنسان في هذه الحياة من مأكلا ومشرب وغيرهما .

والمراد بدارهم : أماكن سكناهم التي يعيشون فيها .
أى : قال لهم فيهم بعد نحرهم للنافذة : عيشوا في بلدكم هذا ، متمتعين بما فيه من نعم لمدة ثلاثة أيام : فقط ، فهي آخر ما بقي لكم من متاع هذه الدنيا ، ومن أيام حياتكم .

ذلك ، الوعد بنزول العذاب بكم بعد هذه المدة القصيرة .
وعد غير مكذوب ، فيه لأنه صادر من الله - تعالى - الذي لا يخلف وعده .
وعبر عن قرب نزول العذاب بهم بالوعد على سبيل التهكم بهم .

قال الجبل : « ومكذوب ، يحوز أن يكون مصدرا على وزن مفعول ، وقد جاء من ألفاظ نحو : الجنود والمنقول والمنشور والمغبون ، ويحوز أن يكون اسم مفعول على بابيه وفيه تأويلان : أحدهما : غير مكذوب فيه ، ثم حذف حرف الجر فأنصل الضمير مرفوعا مستترا في الصفة ومثله : يوم مشهود . والثاني : أنه جمل هو نفسه غير مكذوب ، لأنه قد وفى به ، وإذا وفى به فقد صدق ، (١)

ولقد تحقق ما وعدهم به فيهم ، فقد حل بهم العذاب في الوقت الذي حدد لهم ، قال - تعالى - « فلما جاء أمرنا ، أى : فلما جاء أمرنا بنزل العذاب بهم في الوقت المحدد .

نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ، أى برحمة عظيمة كائنة منا .
ونجيناهم أيضا من خزي يومئذ ، أى : من خزي وذل ذلك اليوم الهائل الشديد الذي نزل فيه العذاب بهم باعتبارهم من قوم صالح - عليه السلام - فأبادهم فالتفتون في قوله « يومئذ » عوض عن المضاعف لإيه المحذوف .

وقوله - سبحانه - « إن ربك هو القوى العزيز ، تسليمة لرسول - صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين عما أصابهم من أذى .

(١) حاشية الجبل على الجلالين ج ٤ ص ٨٠٨

أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - هو القوى الذى لا يعجزه شئ العزيز الذى لا يهون من يتولاه ويرعاه ، فلا تبئس بما أصابك من قومك ، فربك قادر على أن يفعل بهم ، ما فعله بالظالمين السابقين من أمثالهم .

ثم صور القرآن الكريم حال هؤلاء الظالمين تصويراً يدعو إلى الاعتبار والانتعاض فقال : « وأخذ الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جائعين ، كأن لم يغنوا فيها . ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود ، » .

والصيحة : الصوت المرتفع الشديد . يقال : صاح فلان إذا رفع صوته بقوة . وأصل ذلك تشقيق الصوت ، من قولهم : إنصاح الخشب والشوب ، إذا انشقق فسمع له صوت .

« وجائعين ، : من الجثوم وهو اللداس وللطير بمنزلة الأبروك للإبل . يقال : جثم الطائر يحجم جثماً وجثوماً فهو جائع ... إذا وقع على صدره ، ولزمه مكانه فلم يبرحه .

ويعنوا فيها : أى يقيموا فيها . يقال : غنى فلان بالمكان بغنى إذا أقام به وعاش فيه فى نعمة ورغد .

أى : وأخذ الذين ظلموا من قوم صالح - عليه السلام - العذاب عن طريق الصيحة الشديدة التى صيحت بهم بأمر الله - تعالى - « فأصبحوا ، بسببها » فى ديارهم جائعين ، أى : هلكى صرعى ، ساقطين على وجوههم ، بدون حركة ...

« كأن لم يغنوا فيها ، أى : كأن هؤلاء القوم الظالمين لم يقيموا فى ديارهم عمراً طويلاً وهم فى رخاء من عيشهم ، ...

« ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود ، أى : ألا إن هؤلاء الظالمين من قبيلة ثمود ، كفروا نعمة ربهم وجحدوها ؛ ألا بعداً وسحقاً وهلاكاً لهؤلاء المجرمين من قبيلة ثمود .

وفي تكرار حرف التنبيه ، ألا ، و تكرار لفظ ، ثمود ، تأكيد لظردم
من رحمة الله ، وتسجيل لما ارتكبهوه من منكرات ،

وبذلك انطوت صفحة أولئك الظالمين من قوم صالح - عليه السلام - كما
انطوت من قبلهم صفائح قوم نوح وهود - عليهما السلام - .

ومن أبرز العبر والعظات التي نأخذها من قصة صالح مع قومه كما وردت
في هذه السورة المكرمة : أن النفوس إذا انطمست ، والعقول إذا انتكست ،
تعجب فلا عجب فيه ؛ ويستغفركر ما هو حق وصدق ، وتسيء ظننا بالشخص
الذي كان بالأمس القريب موضع رجائها وثقتها ، لأنه أتاها بما لم يالفوه ...
حتى ولو كان ما أتاها به فيه مساعدتهم وهدايتهم ...

فصالح - عليه السلام - كان مرجوا في قومه قبل أن يكون نبيا ، فلما
صار نبيا وبلغهم ما أرسله الله به ، خاب أملهم فيه ، وساء ظنهم به ، وجأهوه
بالعداوة والعصيان ... مع أنه إنما أتاها بما يسعدهم ...

وصدق الله إذ يقول : « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض
بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه
سبيلا ، وإن يروا سبيل الغنى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا
عنها غافلين » (١)

هذا ، وقد وردت أحاديث تصرح بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم -
قد مر على ديار قوم وهود وهو في طريقه إلى غزوة تبوك .

ومن هذه الأحاديث ما رواه الشيخان عن ابن عمر قال : لما مر رسول الله
صلى الله عليه وسلم بالحجر قال : لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن
تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين ، فلا تدخلوا عليهم ، لئلا يصيبكم
ما أصابهم . ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادي ،

ثم سأقت السورة الكريمة جانباً من قصة إبراهيم - عليه السلام - مع الملائكة ، الذير جاءوه بالبشارة ، فقال - تعالى - .

« ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ، قالوا سلاماً قال سلامٌ
فألبت أن جاء بعجلٍ حنيذٍ (٦٩) فلما رأى أيديهم لا تصل إليه
نكرهم وأوجس منهم خيفةً قالوا لا تحفّ إنا أرسلنا إلى قومٍ
لوطٍ (٧٠) وامرأته قاعةً فضجكت ، فبشرناها بإسحاق ومن وراء
إسحاق يعقوب (٧١) قالت يا ويلتا أألدّ وإنا عجزوزٌ وهذا بعلّى شيخاً
إنّ هذا لشيءٌ عجيبٌ (٧٢) قالوا أتعجبين من أمرٍ أمره الله وبركاته
عليكم أهل البيت إنّهُ حميدٌ مجيدٌ (٧٣) فلما ذهب عن إبراهيم
الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قومٍ لوطٍ (٧٤) إنّ إبراهيم لحليمٌ
أواهٌ منيبٌ (٧٥) يا إبراهيم أعرض عن هذا إنّهُ قد جاء أمرٌ ربك ،
إنهم آتيهم عذابٌ غيرُ مردودٍ (٧٦) » .

هذه قصة إبراهيم - عليه السلام - مع الملائكة الذي جاءوا بالبشارة بابنه
إسحاق ، وبإخباره بإهلاك قوم لوط - عليه السلام -

وقد وردت هذه القصة في سور أخرى منها سورة الحجر في قوله - تعالى - :
« ونبئهم عن ضيف إبراهيم . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً ، قالوا إنا منكم
وجلون » (١)

ومنها سورة الذاريات في قوله - تعالى - : « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم
المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً ، قال سلام قوم منكرون . » (٢)

(١) الآيات من ٥٢ إلى ٦٠ .

(٢) الآيات من ٢٤ إلى ٣٧ .

والمراد بالرسول في قوله - سبحانه - «ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى»
 اعة من الملائكة الذين أرسلهم الله - تعالى - لتبشير إبراهيم بابنه إسحاق .
 وقد اختلفت الروايات في عددهم فعن ابن عباس أنهم ثلاثة وهم: جبريل
 وميكائيل وإسرافيل . وعن الضحاك أنهم كانوا تسعة ، وعن السدي أنهم كانوا
 حد عشر ملكاً ...

والحق أنه لم يرد في عددهم نقل صحيح يعتمد عليه ، فلنفوض معرفة عددهم
 إلى الله - تعالى - .

والبشرى : اسم للتبشير والبشارة وهي الخبر العار ، فهي أخص من الخبر ،
 سميت بذلك لأن آثارها تظهر على بشرة الوجه أى : جلده .

وجاءت هذه الجملة الكريمة بصيغة التأكيده للاهتمام بمضمونها ، وللرد على
 مشركي قريش وغيرهم من كان ينسكروا هذه القصة وأمثالها .

والباء في قوله - سبحانه - «بالبشرى» المصاحبة والملازمة ، أى :
 جاءوه مصاحبين وملتزمين بالبشرى .

وقوله : «قالوا سلاما قال سلام» حكاية لتحجيتهم له ولرده عليهم .

«وسلاما» منصوب بفعل محذوف . أى قالوا نسلم عليك سلاما .

«وسلام» مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف . أى قال أمرى سلام .

وقرأ حمزة والكسائي : قال سلم وهو اسم للمسلمة .

ثم بين - سبحانه - ما فعل إبراهيم مع هؤلاء الرسل من مظاهر الخفاوة
 والتكريم فقال : «فألبث أن جاء بهجلاً حنيذ» .

و«ما» في قوله «فألبث» نافية ، والفاء للتعقيب ، واللبث في المكان
 معناه : عدم الانتقال عنه . والعجل : الصغير من البقر .

والحنيز : السمين المشوى على الحجارة المحماة في حفرة من الأرض . يقال :
 حنن الشاة يحننوها حنناً أى : شواها بهذه الطريقة .

أى : فما أبطأ وما تأخر إبراهيم - عليه السلام - عن إكرامهم ، بل بمجرأ
أن انتهى من رد التحية عليهم ، أسرع إلى أهله فجاءهم بهيجل حنيذ

وهذا الفعل منه - عليه السلام - يدل على سعة جوده ، وعظيم سخائه .
فإن من آداب الضيافة ، تعجيل القرى للضيف ..

قال أبو حيان : والأقرب في إعراب وفاء لبث أن جاء ... ، أن تكون وما ،
نافية ، ولبث معناه تأخر وأبطأ ، وأن جاء ، فاعل لبث والتقدير : فسا
تأخر بحبيبه ...

ربحوز أن يكون فاعل لبث ضمير إبراهيم ، وأن جاء على إسقاط حرف
الجر ، أى فما تأخر في أن جاء بهيجل حنيذ (١)

ثم بين - سبحانه - حال إبراهيم عندما رأى ضيوفه لا يأكلون من طعامه
فقال : فلما رأى أيديهم لا تصل إليه فكرمهم وأرجس منهم خيفة ... ،
ومعنى : فكرمهم : ففر منهم ، وكره تصرفهم . فنقول : فلان فكروا حال
فلان - كعلم - وأنكروه فكروا ونكورا ... إذا وجدته على غير ما يمهده فيه ،
ويتوقعه منه .

وهو أوجس ، من الوجس وهو الصوت الخفى ، والمراد به هنا : الإحساس
الخفى بالخوف والفرع الذى يقع فى النفس عند رؤية ما يقلقها ويخيفها .

أى : فلما رأى إبراهيم - عليه السلام - ضيوفه لا تمتد أيديهم إلى الطعام
الذى قدمه لهم ، ففر منهم ، وأحس فى نفسه من جهتهم خوفا ورعبا ؛ لأن
امتناع الضيف عن الأكل من طعام مضيئه - بدون سبب مقنع - يشمر بأن
هذا الضيف ينوى شرا به ... والتقاليد فى كفير من البلاد إلى الآن تؤيد ذلك .

ولذا قال الملائكة لإبراهيم عندما لاحظوا ما يساور نفسه من الخوف :
لا تخف إنا أرسلناك إلى قوم لوط ،

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان - ص ٢٤٩ طبعة دار الفكر - ١٩٥٥ .

أى : لا تخف يا إبراهيم فإننا لسنا ضيوفا من البشر ، وإنما نحن رسل من الله - تعالى - أرسلنا إلى قوم لوط لإهلاكهم .

وقد جاء في بعض الآيات أنه صارحهم بالخوف منهم ، ففي سورة الحجر قال - تعالى - : « ونبئهم عن ضيف إبراهيم . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال إنما أنتمكم وجلون . قالوا لا تؤجل لنا نبشرك بغلام عليم . . . » .

ثم حكى . . . سبحانه - ما حدث بعد ذلك فقال : « وأمرأته قائمة فضحك فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب . » .

والمراد بامرأته - كما يقول القرطبي - « سارة بنت هاران بن ناحور ، ابن شاروع ، بن أرغو ، ابن فالغ ، وهى بنت عم إبراهيم ^(١) » .
وقيامها كان لأجل قضاء مصالحها ، أو لأجل خدمة الضيوف
أو لغير ذلك من الأمور التى تحتاجها المرأة فى بيتها .

والمراد بالضحك هنا حقيقة . أى : فضحكت سرورا وأبتهاجا بسبب زوال الخوف عن إبراهيم ، أو بسبب علمها بأن الضيوف قد أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط ، أو بهما معا . . .

قال الشوكانى : والضحك هنا هو الضحك المعروف الذى يكون للتعجب والسرور كما قاله الجمهور .

وقال مجاهد وعكرمة : لأنه الحياء ، ومنه قول الشاعر :
ولمى لآتى العرس عند ظهورها وأهجرها يوما إذ ذاك ضاحكا
وقد أنكربعض اللغويين أن يكون فى كلام العرب ضحك بمعنى حاضت ^(٢) .
أى : وفى أعقاب قول الملائكة لإبراهيم لا تخف . . . كانت امرأته قائمة لقضاء بعض حاجاتها ، فلما سمعت ذلك ، ضحكت ، سرورا وفرحا لزوال خوفه

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٧٠

(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى ٢ ص ٥١٠

« فبشرناها ، عقب ذلك ، بولودها ، إسحاق » كما بشرناها بأن إسحاق سيكون من نسله ، يعقوب ، . فهي إشارة مضاعفة . إذ أنها تحمل في طياتها أنها ستعاش حتى ترى ابن ابنها ...

ولا شك أن المرأة عندما تكون قد بلغت سن اليأس . ولم يكن لها ولد ، ثم تأتيها مثل هذه البشارة بهز كيائها ، ويزداد عجبها ، ولذا قالت على سبيل الدهشة والاستغراب : « بارليتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب » .

وكلمة : يا ويلتنا ، تستعمل في التحسر والتألم والتفجع عند نزول مكروه . والمراد بها هنا : التعجب لا الدعاء على نفسها بالويل والهلاك ، وهي كلمة كثيرة الدوران على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يدهشن له ، ويتعجبين منه .

أي : قالت بدهشة وعجب عندما سمعت بشارة الملائكة لها بالولد وبولد الولد : يا للعجب أألد وأنا امرأة عجوز ، قد بلغت سن اليأس من الحمل منذ زمن طويل ، وهذا بعلي ، أي : زوجي إبراهيم شيخا كبيرا متقدما في السن .

قال الجمل : وهاتان إغلتان - وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا - في محل النصب على الحال من الضمير المستتر في « أألد » ، وشيخا حال من بعلي ، والعامل فيه اسم الإشارة لما فيه من معنى الفعل ، (١) .

وقولها - كما حكى القرآن عنها - ، إن هذا شيء عجيب ، أي : إن هذا الذي بشرتموني به من حصول الولد لي في تلك السن المتقدمة « شيء عجيب » في مجرى العادة عند النساء وقد رد عليهما الملائكة بقولهم : « قالوا أتعجبين من أمر الله » ١١٤

أي : أتعجبين على قدرة الله - تعالى - أن يرزقك الولد وأنت وزوجك في هذه السن المتقدمة ؟ لأنه لا ينبغي لك أن تسبغدي ذلك ، لأن قدرة الله

لا يعجزها شيء . فالاستفهام هنا المراد به الإنكار تعجبها واستبعادها إشارة ، وإزالة أثر ذلك من نفسها لإزالة التامة .

وقوله : «رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت» حكاية لما قاله الملائكة لها ، زيادة في سرورها وفي إدخال النعمة أبلغ على قلبها .

أي رحمة الله الواسعة ، وبركاته وخيراته النامية عليكم أهل البيت الكريم وهو بيت إبراهيم - عليه السلام - .

قال صاحب الكشف : وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها ، لأنها كانت في بيت الآيات ، ومهبط المعجزات ، والأمور الخارقة للعادات ، فكان عليها أن تتوقر ، ولا يزددها ما يزدهي سائر النساء الغاشقات في غير بيت النبوة وأن تسبح الله وتمجده ، مكان التعجب .

وإلى ذلك أشارت الملائكة في قولهم «رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت» .

أرادوا أن هذه أمثالها بما يسكرمكم به رب العزة ، ويخصكم بالإتمام به يا أهل بيت النبوة ، فليس بمكان عجب . والمكلام مستأنف علل به الإنكار التعجب . كأنه قيل : إياك والتعجب ، فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكررة من الله عليكم ، (١) .

وقوله - سبحانه - : «لأنه حميد مجيد» تذييل بديع قصد به وجوب مداومتها على حمد الله وتمجيده على أن وهبها الولد بعد أن بلغت سن اليأس من الحمل .

أي لأنه - سبحانه - «حميد ، أي : مستحق للحمد لكثرة نعمه على عباده» مجيد ، أي كريم واسع الإحسان ، فليس بعيدا منه أن يعطى الولد للآباء بعد الكبير .

قال صاحب المفاز ما ملخصه . وأصل المجد في اللغة أن تقع الإبل في أرض

واسعة المرعى ، كثيرة الخصب ، يقال . مجدت الإبل تيمجد من باب نصر .
مجدا ومجادة ، وأمجدها الراعى .

والجدة في البيوت والأنسب ما يعده الرجل من سعة كرم آبائه وكثرة ذنوبهم .
ووصف الله كتابه بالمجيد ، كما وصف نفسه بذلك ، لسعة هداية كتابه ،
وسعة كرمه وفضله على عباده (١) .

ثم حكى - سبحانه - ما كان من إبراهيم بعد أن سكن خوفه ، واطمأن
إلى ضيقه فقال : فقلنا ذهب عن إبراهيم الروع ، أى : الخوف والفرع ،
بسبب اطمئنانه إلى ضيقه ، وعلمه أنهم ليسوا من البشر .

• وجاءته البشرى ، منهم بالولد ، واتصال النسل ، فزاد سرورهم .
بعد كل ذلك ، أخذ إبراهيم يدجادنا في قوم لوط ، أى : يجادل رسلنا
ويحاورهم في شأن قوم لوط ، وفي كيفية عقابهم ، بعد أن أخبروه باتهم
ذاهبون لإهلاكهم .

وأضاف - سبحانه - المجادلة إلى نفسه مع أنها كانت مع الملائكة ، لأن
نزولهم لإهلاك قوم لوط إنما كان بأمره - تعالى - ، فجادلة إبراهيم لهم
مجادلة في تنفيذ أمره - تعالى - .

وقال - سبحانه - : يدجادنا ، مع أنها كانت في الماضي ، لتصوير هذه الحالة
في ذهن تصورنا حاضرا ، حتى تزداد منه العبرة والعظة .

وهذه المجادلة التي كانت بين إبراهيم وبين الملائكة الذين أرسلوا لإهلاك
قوم لوط ، قد حكاه - سبحانه - في سورة العنكبوت في قوله : : ولما جاءت
رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنما مهلكوا أهل هذه القرية - أى القرية التي
يسكنها قوم لوط - إن أهلها كانوا ظالمين . قال إن فيها لوطا ، قالوا نحن أعلم
بمن فيها لننجينه وأهله إلا أمرأته كانت من الغابرين ، الآيتان ٣١ - ٣٢ .

وهذا التفسير للمجادلة التي دارت بين إبراهيم والملائكة في عقاب قوم
لوط هو الصحيح لأن خير تفسير للقرآن هو ما كان بالقرآن .
وما ورد من أقوال تخالف ذلك فلا يلتفت إليها ، لعدم استنادها إلى
النقل الصحيح .

وقوله - سبحانه - « إن إبراهيم لحليم أواه عيب ، بيان للدواعي التي
حملت إبراهيم - عليه السلام - على مجادلة الملائكة في شأن أهلاك قوم لوط .
والحليم : هو الصبور على الأذى ، الصفوح عن الجناية ، المقابل لها
بالإحسان .

والأواه : هو الذي يكسر التأوه من خشية الله .
قال الألوسي : وأصل التأوه قوله آه ونحوه مما يقوله المتوجع الحزين .
وهو عند جماعة كناية عن كمال الرأفة ورقة القلب . وأخرج ابن جرير وابن
أبي حاتم وغيرهما عن عبد الله بن شداد قال رجل : يا رسول الله ما الأواه ؟
قال : الخاشع المتضرع الكثير الدعاء ، (١) .

والنبيب : السريع الرجوع إلى الله - تعالى - بالتوبة والاستغفار .
أي أن إبراهيم لصبور على الأذى ، صفوح عن الجناية ، كثير التضرع
إلى الله ، سريع الرجوع إلى كل ما يحبه ويرضاه .

ولكن حلم إبراهيم وإذاته ... لم يرد قضاء الله العادل في شأن قوم لوط
ولذا قال الملائكة له - كما حكى القرآن عنهم - « يا إبراهيم أعرض عن
هذا ، إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ،

أي : قال الملائكة لإبراهيم : « يا إبراهيم أعرض عن هذا ، الجسدال في
أمر قوم لوط ، وفي طلب إمهال عقوبتهم » إنه قد جاء أمر ربك ، يهلكهم
« لأنهم » بسبب إصرارهم على ارتكاب الفواحش « آتيهم » من ربهم « عذاب »

شديد غير مردود، عنهم لا بسبب الجدال ولا بأى سبب سواه، فإن قضاء الله لا يرد عن القوم المجرمين . هذا ، وقد ذكر الشيخ القاسمى بعض الفوائد والأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآيات فقال : قال بعض المفسرين : لهذه الآيات نمرات وفوائد ،

منها : أن حصول الولد المخصص بالفضل نعمة ، وأن هلاك العاصى نعمة — أيضا — لأن الدشمى قد فسرت بولادة إسحاق لقوله ، وبشرنا بإسحاق وفسرت بهلاك قوم لوط ، لقوله : قالوا لا نخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ، ومنها : لاستحباب نزول المبرر — بالكسر — على المبرر — بالفتح — لأن الملائكة أرسلهم الله — تعالى — لذلك .

ومنها : أنه يستحب للبشر أن يتلقى البشارة بالشكر لله — تعالى — على ما بشر به . فقد حكى عن الأصم أنه قال : جاؤوه فى أرض يعمل فيها ، فلما فرغ غرز مسحاته ، وصلى ركعتين .

ومنها : أن السلام متروك ، وأنه يفتى أن يكون الرد أفضل لقول إبراهيم ، سلام ، بالرفع وهو أدل على الثبات والدوام .

ومنها : مشروعية الضيافة ، والمبادرة إليها ، واستحباب مبادرة الضيف بالاكل منها .

ومنها : استحباب خدمة الضيف ولو للمرأة ، لقول مجاهد : وامرأته قائمة ؛ أى فى خدمة أضياف إبراهيم وخدمة الضيفان من مكارم الأخلاق :

ومنها : جواز مراجعة الأجانب فى القول ، وأن صوتها ليس بمعورة .
ومنها . أن امرأة الرجل من أهل بيته ، فبكون أزواجه - صلى الله عليه وسلم - من أهل بيته (١) :

ومنها : - كما يقول الإمام ابن كثير - استدلل على أن الذبيح هو اسماعيل لا إسحاق ، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق ، لأنه وقعت البشارة به ، وأنه سيرلد له يعقوب ، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده ، ووعده الله حق لا خلاف فيه ، فيمتنع أن يؤمر بذبح إسحاق والحالة هذه ، فتعين أن يكون الذبيح اسماعيل ، وهذا من أحسن الاستدلال وأصح : ، ، (١)

« وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئِدَهُمْ وَصَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا ، وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُرْعَوْنَ إِلَيْهِ ، وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ، قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا فِي صَیْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ، وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ ، إِنَّهُ يُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ، إِنْ مَوْعِدُهُمْ الصَّبْحُ ، أَلَيْسَ الصَّبْحُ بَقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) . »

ثم انتقلت السورة الكريمة الى الحديث عما دار بين لوط وبين الملائكة وبينه وبين قومه من حوار وجدال فقال - تعالى - :

- تلك هي قصة لوط مع الرسل الذين جاءوا لإهلاك قومه المجرمين ، كما حكمتها سورة هود .

- وقد وردت هذه القصة في سور أخرى وبأساليب متنوعة ، ومنها سورة الأنعام ، والحجر ، والشعراء ، والنمل ، والعنكبوت : والصفات . والذاريات . والقمر ...

قال الإمام ابن كثير : ولوط هو ابن هاران بن آزر ، فهو ابن أخي إبراهيم ، وكان قد آمن مع عمه إبراهيم وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه الله إلى أهل بلدة سدوم وما حولها يدعوهم إلى وحدانية الله - تعالى - ، ويأمرهم بالمعروف . وبينهم عما كانوا يرتكبون من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها دون أن يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا من غيرهم ، وهولتيان الذكور دون الإناث ، وهذا شيء لم يكن أحد من بني آدم يعمده ولا يألفه ولا يخطر بباله ، حتى صنع ذلك أهل سدوم - وهم قرية بوادي الأردن عليهم لعائن الله ، (١)

- وقد بدأ - سبحانه - القصة هنا بتصوير ما اعتري لوطا - عليه السلام - من ضيق وغم عندما جاءته الرسل فقال : « ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم »

- أي : وحين جاء الملائكة إلى لوط - عليه السلام - بعد مفارقتهم لإبراهيم ، ساءه وأحزنه بحيثهم ، لأنه كان لا يعرفهم ، ويعرف أن قومه قوم سوء ، فخشى أن يعتدى قومه عليهم ، بعادتهم الشنيعة ، وهو عاجز عن الدفاع عنهم ...

قال ابن كثير ما ملخصه : « يخبر الله - تعالى - عن قدوم رسوله من الملائكة إلى لوط - عليه السلام - بعد مفارقتهم لإبراهيم ... فاتوا لوطا

— عليه السلام — وهو على ما قيل في أرص له. وقيل في منزله ، ووردوا عليه
وهم في أجل صورة نمكون ، على هيئة شبان حسان الوجوه ، ابتلاء من الله ،
وله الحكمة والحجة البالغة ، فساء شأنهم » (١)

— وقوله : « وضاق بهم ذرعا » تصوير بديع لنفاذ حيلته ، واغتنام نفسه
وعجزه عن وجود حيلة للخروج من المكروه الذي حل بهم .

قال القرطبي : والذرع مصدر ذرع . وأصله : أن يذرع البعير يديه في
سيره ذرعا على قدر سعة خطوه . فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق عن ذلك
وضعف ومد عنقه . فضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع . وقيل هو من ذرعه
القيء أى غلبه .

أى : ضاق عن حبسه المكروه في نفسه .

وانما ضاق ذرعا بهم لما رأى من جسامهم ، وما يعلمه من فسوق
قومه » (٢)

— و « ذرعا » تمييز محول عن الفاعل . أى : ضاق بأمرهم ذرعه .

« وقال هذا يوم عصيب » : أى وقال لوط — عليه السلام — في ضجر
وألم : هذا اليوم الذى جاءنى فيه هؤلاء الضيوف ، يوم « عصيب » أى : شديد
هوله وكربه .

وأصل العصب . الشد والضغط ، فكأن هذا اليوم لشدة وقعه على نفسه
قد عصب به الشر والبلاء ، أى : شد به .

قال صاحب تفسير التحرير والتنوير : ومن بديع ترتيب هذه الجمل أنها
جاءت على ترتيب حصولها في الوجود ، فإن أول ما يسبق إلى نفس النكارة
للأمر أن يساء به ويتضارب المخلص منه ، فإذا علم أنه لا مخلص له من ضاق به
ذرعا . ثم يصدر تعبيراً عن المعاني يريج به نفسه ، (٣)

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٦٦ (٢) تفسير القرطبي ٥/ ٦٤

(٣) تفسير التحرير والتنوير للشيخ ابن عاشور ١٢/ ١٢٥

- ثم بين - سبحانه - ما كان من قوم لوط - عليه السلام - عندما علموا بوجود هؤلاء الضيوف عنده فقال : « وجاءه قومه يهرعون إليه . ومن قبل كانوا يعملون السيئات ٢٠٠٠٠ »

- ويهرعون - بضم الهمزة - وفتح الراء على صيغة المبنى للمفعول - أي : يدفع بعضهم بعضا بشدة ، كأن ساقا يسوقهم الى المسكان الذي فيه لوط وضيوفه .

يقال : هرع الرجل وأهرع - بالبناء للمفعول فهما - إذا عجل وأسرع لدافع يدفعه إلى ذلك .

قال الآلوسی : والعامية على قرأته مبنيا للمفعول ، وقرأ جماعة يهرعون - بفتح الياء مع البناء للفاعل - من هرع - بفتح الهاء والراء - وأصله من الهرع وهو الدم الشديد السيلان ، كان بعضه يدفع بعضا (١) .

أي : وبعد أن علم قوم لوط بوجود هؤلاء الضيوف عند نبيهم ، جاءوا إليه مسرعين يسوق بعضهم بعضا إلى بيته من شدة الفرح ، ومن قبل هذا المجيء ، كان هؤلاء القوم الفجرة ، يرتكبون السيئات الكثيرة ، التي من أقبحها إتيانهم الرجال شهوة من دون النساء .

وقد طوى القرآن الكريم ذكر الفرض الذي جاءوا من أجله ، وأشار إليه بقوله : (ومن قبل كانوا يعملون السيئات) للإشعار بأن تلك الفاحشة صارت عادة من العادات المتأصلة في نفوسهم الشاذة ، فلا يسمعون إلا من أجل فضاءها . ثم حكى القرآن بعد ذلك ما بادرهم به نبيهم بعد أن رأى هياجهم وتدافعهم نحو داره فقال : (قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم) ...

والمراد ببناته هنا : زوجاتهم ونسائهم اللائي يصلحن للزواج ، وأضافن إلى نفسه ؛ لأن كل نبي أب لأمته من حيث الشفقة وحسن التربية والتوجيه .

قال ابن كثير : قوله - تعالى - « قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم » يرشدكم إلى نسايتهم ، فإن النبي للامة بمنزلة الوالد ، فأرشدكم إلى ما هو أنفع لهم ، كما قال لهم في آية أخرى : « أتأتون الذكران من العالمين . وتذوون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون »

قال مجاهد : لم يكن بناته ، ولكن كن من أمته ، وكل نبي أبو أمته ... وقال سعيد بن جبیر : يعنى نساؤهم ، هن بناته وهو أب لهم ... (١) . ومنهم من يرى أن المراد ببناته هنا : بناته من صلبه ، وأنه عرض عليهم الزواج بهن

ويصيف هذا الرأى أن لوطا - عليه السلام - كان له بنتان أو ثلاثة - كما جاء في بعض الروايات - ، وعدد المتيادعين من قومه إلى بيته كان كثيرا ، فكيف تكفيهن بنتان أو ثلاثة للزواج . - ؟

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، وقد رجحه الإمام الرازى بأن قال مالمخصه : « وهذا القول عندى هو المختار ، ويدل عليه وجوه : منها : أنه قال « هؤلاء بناتي هن أطهر لكم » ، وبناته اللاتي من صلبه لا تكفى للجمع العظيم ، أما نساء أمته ففهن كفاية لكل ... »

ومنها : أنه صحت الرواية أنه كان له بنتان وهما : زفنا وزعورا ، وإطلاق لفظ البنات على البنتين لا يجوز ، لما ثبت أن أفل الجمع ثلاثة ... ، (٢) .

والمعنى : أن لوطا - عليه السلام - عندما رأى تدافعهم نحو بيته لاوتكاب الفاحشة التى ماسبقهم بها من أحد من العالمين ، قال لهم : برجاء ورفق ديا قوم ، هؤلاء نساؤكم اللاتي بمنزلة بناتي أرجعوا إليهن فاقضوا شهواتكم معهن ، فهن أطهر لكم نفسيا وحسيا من التلوث برجس الدواط ، وأفعال التفضيل هنا وهو « أطهر » ليس على بابه ، بل هو للدبالغة فى الطهر .

(١) تفسير ابن كثير ٣ - ٤ ص ٢٦٨ .

(٢) تفسير النخعي الرازى ج ١٨ ص ٣٢ .

قال القرطبي : وليس ألف أظهر للتفضيل ، حتى يزوم أن في نكاح الرجال طهارة ، بل هو كقولك الله أكبر - أى كبير - ولم يكابر الله - تعالى - أحد حتى يكون الله - تعالى - أكبر منه (١) .

ثم أضاف إلى هذا الإرشاد لهم إرشادا آخر فقال : « فائقوا الله ولا تخزون في ضيقى » .

قال الجمل : ولفظ الضيف في الأصل مصدر ، ثم أطلق على الطارق ليلا إلى المضيف ، ولذا يقع على المفرد والمذكر وضميهما . لفظ واحد ، وقد يتنى فيقال : ضيفان ، ويجمع فيقال : أضياف وضيوف (٢) .

وتخزون : من الخزي ودو الإهانة والمذلة . يقال : خزي الرجل يخزي خزيا ... إذا وقع في بلية فذل بذلك .

أى : بعد أن أرشدكم إلى نساءهم ، أمرهم بتقوى الله ومراقبته ، فقال لهم فائقوا الله . ولا تجعلوني مخزيا مفضوحا أمام ضيو فى بسبب اعتدائكم عليهم ، فإن الاعتماد على الضيف كأنه اعتداء على المضيف .

ويبدو أن لوطا - عليه السلام - قد قال هذه الجملة ليلس بها نخوتهم إن كان قد بقى فيهم بقية من نخوة ، ولسكنه لما رأى إصرارهم على فجورهم وبخهم بقوله :

« أليس هنكم رجل رشيد ، يهدى إلى الرشد والفضيلة . وينهى عن الباطل والرديلة . فيقف إلى جانبي . ويصرفكم عن ضيو فى ؟ »

ولكن هذا النصيح الحكيم من لوط لهم لم يحرك قلوبهم الميعة الآسنة . ولا فطرتهم الشاذة المنكوسة . بل ردوا عليه بقولهم :

« قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد . »

أى : قال قوم لوط له بسفاهة ووقاحة : لقد علمت يا لوط علما لاشك

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٨٦ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٤١٣ .

عه ، أننا لا رغبة لنا في النساء ، لا عن طريق الزواج ولا عن أى طريق آخر ، فالمراد بالحق هنا : الرغبة والشهوة .

قال الشوكاني : قوله « مالنا في بناتك من حق » أى : مالنا فيهن من شهوة ولا حاجة ، لأن من احتاج إلى شيء فكأنه حصل له فيه نوع حق ، ومعنى بالنسبة إليه من العلم أنه قد علم منهم المكابدة على إتيان الذكور وشدة الشهوة إليهم ، فهم من هذه الخبيثة كأنهم لا حاجة لهم إلى النساء . ويمكن أن يريدوا : أنه لا حق لنا في فكاحهن (١) .

وقولهم : « وإفك لتعلم ما نريد » إشارة خبيثة منهم إلى العمل الخبيث الذى ألفوه ، وهو إتيان الذكور دون النساء أى : وإفك لتعلم علما يقينيا لشيء الذى نريده فلماذا ترجعنا ؟

وقولهم هذا الذى حكته الآية السكومية عنهم ، يدل دلالة واضحة على أنهم قد بلغوا النهاية فى الخبث والوقاحة وتبلد الشعور ...

لذا رد عليهم لوط - عليه السلام - رد الياض من أر عوانهم عن غيهم ، لمنفى لوجود قوة إلى جانبه تردعهم وتكف فجورهم فقال : « أن لى كم قوة أو آوى إلى ركن شديد » .

والقوة : ما يتقوى به الإنسان على غيره .

وآوى : أى ألبأ وأنصوى تقول : أدبت إلى فلان فأنا آوى إليه أو أى : انضممت إليه .

والركن فى الأصل : القطعة من البيت أو الجبل ، والمراد به هنا الشخص قوى الذى يلجأ إليه غيره لينتصر به ...

ولو شرطية وجوابها محذوف ، والتقدير : قال لوط - عليه السلام - بعد

أن رأى من قومه الاستمرار في غيهم ، ولم يقدر على دفعهم - على سبيل التفجع والتحسر : لو أن معى قوة أدفعكم بها لبطشت بكم .

ويجوز أن تكون لو للتمنى فلا تحتاج إلى جواب أى : ليت معى قوة استطيع بمناصرتها لى دفع شركم .

وقوله : « أو آوى إلى ركن شديد ، معطوف على ما قبله ، أو لبتنى استطيع أن أجد شحصا قويا من ذوى المنعة والسطان أحتمى به منكم ومن تهديدكم لى ... »

قالوا : وإنما قال لوط - عليه السلام - ذلك ؛ لأنه كان غريبا عنهم ، ولم يكن له نسب أو عشيرة فيهم .

وهنا - وبعد أن بلغ الضيق بلوط ما بلغ - كشف له الملائكة عن حقيقةهم ، وبشروه بما يدخل الطمأنينة على قلبه فقالوا :

« بالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ، أى : إنا رسل ربك أرسلنا إليك لنخبرك بهلاكهم ، فاطمئن فإنهم لن يصلوا إليك يسوء فى نفسك أو فينا . »

روى أن الملائكة لما رأوا ما لقيه لوط - عليه السلام - من الهم والمكرب بسببهم قالوا له : بالوط إن ركنك لشديد ... ثم ضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم ، فارتدوا على أدبارهم يقولون النجاء ، وإليه الإشارة بقوله - تعالى - فى سورة القمر : « ولقد راودوه عن ضيقه فطمسنا أعينهم ، فذوقوا عذابى ونذر ، . »

وقوله : « فأسر بأهلك بقطع من الليل ، أى : فاخرج من هذه القرية مصحوبا بالموثقين من أهلها فى جزء من الليل يكفى لا ابتعادك عن هؤلاء المجرمين . »

قال القرطبي : قرئ . « فأسر وفأسر بوصل الهمزة وقطعها لغتان فصيحتان . »

قال - تعالى - « والليل إذا يسر » ، وقال « سبحانه الذى أسرى بهبده
وقيل « فأسر » ، بالقطع فقال لمن سار من أول الليل .. وسرى لمن سار فى
آخره ، ولا يقال فى النهار إلا سار (١) .

وقوله : « ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك لأنه مصيبها ما أصابهم
معطوف على ما قبله وهو قوله : « فأسر بأهلك » .

أى : فأسر بأهلك فى جرم من الليل ، ولا يلتفت منكم أحد إلى ما وراءه ،
اتقاء لرؤية العذاب ، « إلا امرأتك » ، بالوط فتركها ولا تأخذها معك لأنها
كافرة خائنة ، ولأنها سيصيبها العذاب الذى سينزل بهؤلاء المجرمين
فيهلكها معهم .

قال الإمام الرازى مالم يخصصه : قوله « إلا امرأتك » ، قرأ ابن كثير وأنوعه
« إلا امرأتك » ، بالرفع ، وقرأ الباقر بن النصب .

قال الواحدى : من نصب فقد جعلها مستغفاة من الأهل ، على معنى : فأسر
بأهلك إلا امرأتك أى فلا تأخذها معك ...

وأما الذين رفعوا فالتقدير : ولا يلتفت منكم أحد لكن امرأتك تلتفت
فيصيبها ما أصابهم .

وأما الذين رفعوا فالتقدير : ولا يلتفت منكم أحد لكن امرأتك تأتفت
فيصيبها ما أصابهم .

روى عن قتادة أنه قال : لأنها كانت مع لوط حين خرج من القرية ،
فلما جمعت العذاب التفتت وقالت واقوماه فأصابها حجر فاهلكها ، (٢) .

وقوله - سبحانه - « إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب » ، بشاره
أخرى للوط - عليه السلام - الذى تمى العصرة على قومه .

(١) تفسير القرطبي ٩ ص ٧٦ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ١٨ ص ٣٦ .

أى : إن موعد هلاك المجرمين يتبدى من طلوع الفجر وينتهى مع طلوع الشمس ، أليس الصبح بقريب من هذا الوقت الذى نحدثك فيه ؟

قال - تعالى - فى سورة الحجر : « فأخذتهم الصبحمة مشرقين » أى : وهم داخلون فى وقت الشروق . فكان ابتداء العذاب عند ضلوع الصبح وانهائهم وقت الشروق .

والجلة الكريمة : إن موعدهم الصبح ... ، كالتعليل للأمر بالإسراء بأهله بسرعة ، أو جواب عما جاش بصدده من استعجاله العذاب لهؤلاء المجرمين ، والاستفهام فى قوله سبحانه - أليس الصبح بقريب - للتقرير أى : بلى إنه اقريب .

قال الألوسى : روى أنه - عليه السلام - سأل الملائكة عن موعد هلاك قومه فقالوا له : موعدهم الصبح . فقال : أريد أسرع من ذلك . فقالوا له : أليس الصبح بقريب . ولعله إنما جعل ميعات هلاكهم الصبح لأنه وقت الدعة والراحة فيكون حلول العذاب حينئذ أفظع ، ولأنه أنسب بكون ذلك عبرة للناظرين ^(١) .

ثم حكى - سبحانه - فى نهاية القصة ما حل بهؤلاء المجرمين من عذاب فقال : « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد » .

أى : « فلما جاء أمرنا ، ياهلاك هؤلاء القوم المفسدين ، جعلنا عاليها سافلها ، أى : جعلنا أعلى بيوتهم أسفلها ، بأن قلبناها عليهم ، وهى عقوبة مناسبة لجرائمهم حيث قلبوا فطرتهم ، فأتوا الذكران من العالمين وتركوا ما خلق لهم ربهم من أزواجهم ... »

وقوله « وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود » ، زيادة فى عقوبتهم وانهم

أى : جعلنا أعلى قراهم أسفلها ، وأمطرنا عليهم حجارة « من سجيل » أى : من حجر وطين مختلط ، قد تججر وتصلب . منضود ، أى : متتابع فى النزول بدون انقطاع موضوع بعض على بعض ، من التضسد وهو موضع الاتسياء بعضها إلى بعض .

« مسوفة عند ربك ، أى : معلمة بعلامات من عند ربك لا يعلمها إلا هو . ومعدة لإعدادا خاصا لإهلاك هؤلاء القوم .

« وما هى » أى تلك القرى المهلكة « من الظالمين ، وهم مشركو مكة » ببعيد ، أى : بعيدة عنهم ، بل هى قريبة منهم ، ويمرون عليها فى أسفارهم إلى الشام . قال تعالى — « ولأنكم لتعمرون عليهم مصبيحين ، وبالليل أفلا تعقلون ، » (١) أى : ولأنكم يا أهل مكة لتعمرون على هؤلاء القوم المهلكين من قوم لوط فى وقت الصباح أى النهار ، وتعمرون عليهم بالليل أفلا تعقلون ذلك فاعتبروا وتتعظوا ؟؟

ويجوز أن يكون الضمير فى قوله « وما هى » ، يعود إلى الحجارة التى أهلك الله بها هؤلاء القوم .

أى : وما هى تلك الحجارة الموصوفة بما ذكر من الظالمين ببعيد ، بل هى حاضرة مهيبة بقدرة الله — تعالى — لإهلاك الظالمين بها .

والمراد بالظالمين ما يشمل قوم لوط ، ويشمل كل من عصى الله وتجاوز حدوده ، « لم يتبع ما جاء به الرسول — صلى الله عليه وسلم — .

وهكذا اكفّت نهاية قوم لوط ، فقد انطوت صفحتهم كما انطوت من قبلهم صفحات قوم نوح وهود وصالح — عليهم الصلاة والسلام — .

هذا ومن العبر والأحكام التى نأخذها من هذه الآيات السكينة ، أنه لا بأس على المسلم من أن يستعين بغيره لنصرة الحق الذى يدعو إليه ، ولخذلان الباطل الذى ينهى عنه .

فلوط - عليه السلام - عندما رأى من قومه الإصرار على غوايتهم ومفاسدهم
تمنى لو كانت معه قوة تزجرهم وتردعهم وتمنعهم عن فسادهم .

وقد علق الإمام ابن حزم على ما جاء في الحديث الشريف بشأن لوط -
عليه السلام - فقال ما ملخصه :

« ظن بعض الفرق أن ما جاء في الحديث الصحيح من قوله - صلى الله عليه
وسلم - « رحم الله لوطا ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد » إنما هو من باب
الإنكار على لوط - عليه السلام - في قوله « لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى
ركن شديد »

والحق أنه لا تخالف بين القولين ، بل كلاهما حق ، لأن لوطا - عليه السلام -
إنما أراد منعة عاجلة يمنع بها قومه عما هم عليه من الفواحش . من قرابة أو
عديدة أو أتباع مؤمنين ، وما جهل قط لوط - عليه السلام - أنه يأوى من ربه
- تعالى - إلى أمنع قوة ، وأشد ركن .

ولا جناح على لوط - عليه السلام - في طلب قوة من الناس - فقد قال الله
- تعالى - « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .

وقد طلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الأنصار نصرته حتى يبلغ
كلام ربه ، فكيف ينكر على لوط أمرا هو فعله ١١٩

تافه ما أنكر ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وإنما أخبر أن
لوطا كان يأوى إلى ركن شديد ، يعنى من نصر الله له بالملائكة ، ولم يكن لوط
علم بأنهم ملائكة ... » (١)

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك فقصت علينا ما كان بين شعيب -
عليه السلام - وقومه وكيف أنه دعاهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده بأسلوب

بليغ حكم ، ولكنهم لم يستجيبوا له ، فكانت عاقبتهم الهلاك كالذين من قبله
قال - تعالى - :

« وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ
إِلَٰهِ غَيْرُهُ ، وَلَا تَمْنَقِصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مَّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَتُوفُّوْنَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ
بِالْقِسْطِ ، وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ (٨٥)
بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦)
قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ، أَوْ أَنْ نَفْعَهُ
فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُ
إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ، وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ
أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَآكُمْ عَنْهُ ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ
وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ
شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ نوحَ قَوْمِ هودٍ أَوْ قومَ صالحٍ وَمَا قَوْمُ لوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيَّ
إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدودٌ (٩٠) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا أَمْ مَا تَقُولُ وَإِنَّا
لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ (٩١)
قَالَ يَا قَوْمِ أَرْهَطِي أُعْزِ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخِذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيَا
إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتَتِكُمْ إِنِّي عَاةٌ
سَوْفَ تَعْمَلُونَ ، مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُجْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا
إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مِّنْ

برحمة منا، وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائعين (٩٤)
 كأن لم يغنوا فيها ، ألا بُعِدَ المدين كما بُعِدَتْ نمرود (٩٥) .

تلك هي قصة شعيب - عليه السلام - كما حكيتها هذه السورة الكريمة ، وقد
 وردت هذه القصة في سورة أخرى منها : سورتي الأعراف والشعراء ...
 ومدين ، لاسم للقبيلة التي تنسب إلى مدين بن إبراهيم - عليه السلام - .
 وكانوا يسكنون في المنطقة التي تسمى (معان) وتقع بين حدود الحجاز
 والشام .

وأهل مدين يسمون أيضا بأصحاب الأيكة ،
 والأيكة : منطقة مليئة بالشجر كانت مجاورة لقريه (معان) ، وكان
 يسكنها بعض الناس فأرسل الله شعبيا إليهم جميعا .
 وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم ، فهو أخوهم في
 النسب .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم - لم - إذا ذكر شعيب قال : (ذلك خطيب
 الأنبياء) لحسن مراجعته لقومه ، وقوة حجته .

وكان قومه يعبدون الأصنام . ويطففون في الكيل والميزان ... فدعاهم
 إلى عبادة الله وحده ، ونهاهم عن الخيافة وسوء الأخلاق .

ويرى بعض العلماء : أن شعبيا أرسل إلى اثنين : أهل مدين الذين أهلكتوا
 بالصيحة ، وأصحاب الأيكة الذين أخذهم الله بعذاب يوم الظلة ، وأن الله تعالى
 لم يبعث نبيا مرتين سوى شعيب - عليه السلام - .

ولكن المحققين من العلماء اختاروا أنهما أمة واحدة ، فأهل مدين هم
 أصحاب الأيكة ، أخذتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة - أي السحابة -
 وأن كل عذاب كان كالمقدمة للأخر .

هذا ، وقوله - سبحانه - (وإلى مدين أخاهم شعيبا ...) يعطوف على ما سبقه من قصة صالح - عليه السلام - عطف القصة على القصة .

أى : وكما أرسلنا صالحا - عليه السلام - إلى ثمود ، فقد أرسلنا إلى أخاهم مدين أخاهم شعيبا - عليه السلام - فقال لهم مقالة كل نبى لقومه : يا قوم اعبدوا الله وحده ، فإنكم لا إله إلا الله لكم على الحقيقة .. واه ، فهو الذى خلقكم وهو الذى رزقكم ، وهو الذى لا إله إلاه مرجعكم ...

ثم بعد أن أمرهم بإخلاص العبادة لله ، نهاهم عن التطفيف فى السكيل والميزان فقال : (ولا تنقصوا المكيال والميزان) .

والمكيال والميزان : إسمان للآلة التى يكال بها ويوزن .
ونقص السكيل والميزان يكون من وجهين : أحدهما أن يكون الاستنقص من جهتهم إذا باعوا لغيرهم .

وثانيهما : أن يكون الاستنقص من جهة غيرهم إذا اشتروا منه ، بأخذوا منه أكثر من حقهم .

فكانه - عليه السلام - يقول لهم : لا تنقصوا المكيال والميزان لا عند الأخذ ولا عند الإعطاء ، فلا تعطوا غيركم أقل من حقه إذا بعتم ، ولا تأخذوا منه أكثر من حقه إذا اشتريتم .

وإلى هذين الأمرين أشار قوله - تعالى - (ويل للبطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ...)

ثم بين لهم الأسباب التى دعتهم إلى أمرهم ونهيهم فقال : (لئى أراكم بخير ولئى أخاف عليكم عذاب يوم محيط)

والخير : كلمة جامعة لكل ما يرضى الإنسان ويفنيه ويديره .
ومحيط : أى شامل بحيث لا يستطيع أحد الإفلات منه . كما يحيط الظرف بالمظروف ...

أى : أخلصوا لله عبادتكم ، والتزموا العدل في معاملاتكم ، فإنى أراكم تملكون الوفير من المال ، وتعيشون فى رعد من العيش ، وفى يسطة من الرزق ، ومن كان كذلك فمن الواجب عليه أن يقابل هذه النعم بالشكر لوالهبا وهو الله — تعالى — ، وأن يستعملها إستعمالا يرضيه ، وأن يعطى كل ذى حق حقه .

ولانى — أيضا — أخاف عليكم إذا ما تماديتم فى مخالفة ما أصركم به وما أنهاكم عنه ، عذاب يوم أهواله وآلامه شاملة لكل ظالم ، بحيث لا يستطيع أن يهرب منها ...

قال الشوكانى : وصف — سبحانه — اليوم بالإحاطة ، والمراد العذاب لأن العذاب واقع فى اليوم . ومعنى إحاطة عذاب اليوم بهم ، أنهم لا يشذ منهم أحد عنه ، ولا يجدون منه ملجأ ولا مهربا ، (١) .

فأنت ترى أن شعبيا — عليه السلام — بعد أن أمرهم بما يصلح عقيدتهم ونهاهم عما يفسد معاملاتهم وأخلاقهم ذكرهم بما هم فيه من نعمة وغنى قطعوا لعذرهم حتى لا يقولوا له نحن فى حاجة إلى تطفيف المسكيات والميزان لفقرنا ، ثم أخبرهم بأنه ماحله على هذا النصح لهم إلا خوفه عليهم .

ثم واصل شبيب — عليه السلام — نصحه لقومه ، فأمرهم بالوفاء بعد أن نهاهم عن النقص على سبيل التأكيد ، وزيادة الترغيب فى دعوته فقال : ويا قوم أوفوا المسكيات والميزان بالقسط ،

أى : ويا قوم أوفوا عند معاملاتكم أدوات كيالكم وأدوات وزنكم ، ملتزمين فى كل أحوالكم لعدل والقسط .

ولا تبخسوا الناس أشياءهم ... ، أى : ولا تقصوهم شيئا من حقوقهم .

يقال : بخش فلان فلانا حقه إذا ظلمه وانتقمه . وهو يشمل النقص والعيب في كل شيء ...

والجملۃ السکریمۃ تعمیم بعد تخصیص ، لکی تشمل غیر المکیل والموزون کالمزروع والمعدود ، والجید والردی ...

قال الجمل والمخلصه : وقد كرر - سبحانه - نهيمهم عن النقص والبخس وأمرهم بالوفاء .. لأن القوم لما كانوا مصرين على ذلك العمل القبيح ، وهو تطفيف المكيل والميزان ومنع الناس حقوقهم ، احتج في المنع منه إلى المبالغة في التأكيد ، ولأنه التأكيد يفيد شدة الاهتمام والعناية بالمأمور به والمنهى عنه ، فلماذا كرر ذلك ليقوى الزجر والمنع من ذلك الفعل ... (١)

وقوله : « ولا تمشوا في الأرض مفسدين » تحذير لهم من البطر والغرور واستعمال نعم الله في غير ما خلقت له .

قال ابن جرير : وأصل العثي شدة الإفساد ، بل هو أشد الإفساد . يقال عثي فلان في الأرض يعني - كرضي برضي - إذا تجاوز الحد في الإفساد ... (٢)
أي : ولا تسعوا في أرض الله بالفساد ، وتقابلوا نعمه بالمعاصي ، فتسلب عنكم ثم أرشدكم إلى أن ما عند الله خير وأبقى مما يجمعونه عن الطريق الحرام فقال : « بقیة الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ » .

ولفظ « بقیة » اسم مصدر من الفعل بقي ضد بقي . وإضافتها إلى الله - تعالى - إضافة تشريف وتبجح .

أي : ما يبقيه الله لكم من رزق - حلال ، ومن حال صالح ، ومن ذكر حسن ، ومن أمن وبركة في حياتكم ... بسبب التزامكم بالقسط في معاملتكم ، وهو خير لكم من المال الكثير الذي تجمعونه عن طريق بخش الناس أشياءهم .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٤١٦ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣٠٨ .

وجملة ، إن كنتم مؤمنين ، معترضة لبيان أن هذه الخيرية لا تتم إلا مع الإيمان .

أى : ما يبقيه الله لكم من الحلال ... هو خير لكم ، إن كنتم صدقين بما أرسلت به إليكم ، أما إذا لم تكونوا كذلك فإن تكون بقية الله خير لكم ، لأنها لا تكون إلا للمؤمنين ، فاستجيبوا لنصيحتى لتسعدوا فى دنياكم وآخرتكم .
وجملة ، وما أنا عليكم بحفيظ ، تحذير لهم من مخالفته بعد أن أدى ما عليه من بلاغ .

أى : وما أنا عليكم بحفيظ أحفظ لكم أعمالكم وأحاسبكم عليها ، وأجازيكم بها الجزاء الذى تستحقونه . وإنما أنا ناصح ومبلغ ما أمرنى ربى بتبليغه ، وهو وحده — سبحانه — الذى سبولى مجازاتكم .

وإلى هنا نجد شعبيا — عليه السلام — قد أرشد قومه إلى ما يصلحهم فى عقائدهم ، وفى معاملاتهم ، وفى صلاتهم بعضهم ببعض ، وفى سلوكهم الأشخاص ، بأسلوب حكيم جامع لكل ما يسعد ويهدى للتي هى أقوم ..

فإذا كان رد قومه عليه ؟

لقد كان ردهم عليه — كما حكاه القرآن الكريم — طائفا بالاستهزاء به ، والسخرية منه ، فقد قالوا له : يا شعيب أصلانك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء : إنك لانت الحليم الرشيد .

أى : قال قوم شعيب له — على سبيل التمهك والاستهزاء — : يا شعيب أصلانك — التى تزعم أن ربك كلفك بها والى أنت تسكث منها — تأمرك أن تترك عبادة الأصنام التى وجدنا عليها آباءنا ؟ والاستفهام للإنكار والتعجب من شأنه .

وأسندوا الأمر إلى الصلاة من بين سائر العبادات التى كان يفعلها ، لأنه — عليه السلام — كان كثير الصلاة ، وكانوا إذا رأوه يصلى سخر وا منه .

وجملة « أو أن تفعل في أموالنا ما نشاء » إنكار منهم لترك ما مودوه من نقص السكيل وأنيزان بعد إنكارهم لترك عبادة الأصنام .

وهي معطوفة على « ما » في قوله « ما يعبد آباؤنا ، و « أو » بمعنى الواو .
أى : أصلاتك تأمرك أن تترك عبادة الأصنام ، وتأمرك أن تترك ما مودنا فعله في أموالنا من التطفيف في السكيل والميزان ...

إن كانت صلاتك تأمرك بذلك ، فبى في نظرنا صلاة باطلة ، لا وزن لها عندنا ، بل نحن نراها لونا من ألوان جنونك وعذيانك ...

وجملة « إنك لأنك الحليم الرشيد » زيادة منهم في السخرية منه — عليه السلام — وفي التهكم عليه ، فكأنهم — قبحهم الله — يقولون له : كيف تأمرنا بترك عبادة الأصنام ، وبترك النفس في السكيل والميزان ، مع علمك اليقيني بأن هذين الأمرين قد بنينا عليهما حياتنا ، ومع زعمك لنا بأنك أنت الحليم الذى يتأنى ويتروى في أحكامه ، الرشيد الذى يرشد غيره إلى ما ينفعه ؟
إن هذين الوصفين لا يليقان بك ، مادمت تأمرنا بذلك ، وإنما اللائق بك أصدادهما ، أى الجهالة والسفه والعجلة في الأحكام .

قال صاحب الكشف : وأرادوا بقولهم : « إنك لأنك الحليم الرشيد » نسبته إلى غاية السفه والغى ، فعكسوا ليهكموا به ، كما يتمكم بالشحيح الذى لا يبيض حجره ، فيقال له : لو أبصرك حاتم لسجد لك . وقيل معناه : إنك للثوا صدف بالحلم والرشد في قومك . يعنون أن ما تأمر به لا يطابق حالك وما اشتهرت به ... (١)

هكذا رد قوم شعيب عليه ، وهو رد يحمل السخرية في كل مقطع من مقاطعه ، وليكنها سخرية الشخص الذى انطلمست بصيرته ، وقبحت سريره !!

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٨٧ .

ومع كل هذه السفاهة ؛ نرى شعيبا - عليه السلام - وهو خطيب الأنبياء - يتغاضى عن سفاهاتهم ، لأنه يحس بقصورهم وجهلهم ، كما يحس بقوة الحق الذى أتاهاهم به من عند ربه ، فيرد عليهم بقوله : « قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي . . . ، والبيئة : ما يقين به الحق من الباطل ، ويتميز به الهدى من الضلال .

أبى : قال شعيب لقومه بأسلوب مهذب حكيم : يا قوم أخبروني إن كنت على حجة واضحة ، وبصيرة مستنيرة منحنى لإيها ربي ومالك أمرى .

« ورزقنى منه ، - سبحانه - « رزقا حسنا ، يتمثل فى النبوة التى كرمنى بها ، وفى المال الحلال الذى بين يدي ، وفى الحياة الطيبة التى أحياها .

وجواب الشرط محذوف والتقدير : أخبروني إن كنت كذلك . هل يليق بى بعد ذلك أن أخالف أمره مسaire لأهوائكم ؟ كلا إنه لا يليق بى ذلك ، وإنما اللائق بى أن أبلغ جميع ما أمرنى بذييله بدون خوف أو تقصير .

ثم يكشف لهم عن أخلاقه وسلوكه معهم فيقول : « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنياكم عنه »

أبى : ما أريد بأمرى لكم بعبادة الله وحده ، ونهى إياكم عن التططيف والبخس ، مجرد مخالفتكم ومنازعتكم ومعاكستكم ، أو أن آمركم بشئ . ثم لا أفعله ، أو أنهاكم عنه ثم أفعله ، من أجل تحقيق منفعة دنيوية ..

كلا ، كلا لئى لا أريد شيئا من ذلك وإنما أنا إنسان يطابق قولى فعلى ، وأختار لكم ما أختاره لنفسى .

قال صاحب الكشاف ماملا خصه : قوله « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنياكم عنه ، يقال : خالفنى فلان إلى كذا : إذا قصده وأنت مول عنه . وخالفنى عنه : إذا ولى عنه وأنت تقصده .

ويلقاك الرجل صادرا عن الماء . فتسأله عن صاحبه فيقول : خالفنى إلى

الماء . يريد أنه ذهب إليه وارداً ، وهو ذهب عنه سادراً ، ومنه قوله سبحانه :
 « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، يعنى : ما أريد أن أسبقكم إلى
 شئ وانكم التى نهيتكم عنها لاستنبذ بها دوقكم » (١) .

وقال الإمام ابن كثير . وعن مسروق أن امرأة جاءت إلى ابن مسعود
 - رضى الله عنه - فقالت له : أأنت الذى تمنى عن المواصلة - أى التى تصل
 شعرها بشعر آخر - ؟ قال : نعم . فقالت : فلهـله فى بعض نساءك . فقال :
 ما حفظت إذأ وصية العبد الصالح « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه » (٢) .

ثم بين لهم أنه ما يريد لهم إلا الإصلاح فيقول : « إن أريد إلا الإصلاح
 ما استطعت . . . »

أى : ما أريد بما أنصحكم به إلا إصلاحكم وسعادتكم ، ومادمت أستطيع
 ذلك ، وأقدر عليه ، فلن أقصر فى إسداء الهداية لكم .

ثم يفوض الأمور إلى الله - تعالى - فيقول : وما توفيقى إلا بالله ، عليه
 توكلت واليه أقب .

أى : وما توفيقى فيما أدعوكم إليه من خير أو أنهاكم عنه من شر إلا بتأييد
 الله وعونه ، فهو وحده الذى عليه أنوكل وأعتمد فى كل شئونى ، وهو وحده
 الذى إليه أرجع فى كل أمورى .

ثم يواصل شعيب - عليه السلام - نصحه لقومه ، فينتقل بهم إلى تكديرهم
 بمصارع السابقين ، محذراً إياهم من أن يكون مصيرهم كصير الظالمين من قبلهم
 فيقول : « يا قوم لا يجرنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ، أو
 قوم هود ، أو قوم صالح . . . »

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٨٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٧٥ .

ومعنى لا يجر منكم ، لا يحملنكم ، مأخوذ من جرته على كذا ، إذا حمله عليا
أو بمعنى لا يكسبكم من جرم بمعنى كسب ، غير أنه لا يكون إلا في كسب
مالا خير فيه . ومنه الجريمة ، وهي اقتراف الجرم والفتن .
وأصل الجرم : قطع الشجرة من الشجرة ، وأطلق على الكسب ، لأن المكاسب
لشيء ينقطع له .

وقوله شقاق ، من الشقاق بمعنى الخلاف والعداوة ، كأن كل واحد
من المتعادين في شق غير الشق الذي يكون فيه الآخر . والشق : الجانب .
والمعنى ، ويقوم لاحتملنكم عداوتكم لي ، على افتراء الكذب على ، وم
التمادي في عصياني ومحاربي . فإن ذلك سيؤدي بهم إلى أن يصيبكم العذاب
الذي أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح .

وقوله : وما قوم لوط منكم ببعية ، تذكير لهم بأقرب المهلكين إليهم .
أي : إذا كنتم لم تعتظوا بما أصاب قوم نوح من غرق ، وبما أصاب قوم
هود من ريح دمرتهم ، وبما أصاب قوم صالح من صيحة أهلكتهم ، فاعتظوا
بما أصاب قوم لوط من عذاب جعل أعلى مساكنهم أسفلهما ، وهم ليسوا بعيدة
عنكم لافي الزمان ولا في المكان .

قال الشيخ الفاضل بن عاشور : والمراد بالبعد - في قوله : وما قوم لوط
منكم ببعية - بعد الزمن والمكان والفسب .

فمن لوط - عليه السلام - غير بعيد من زمن شعيب - عليه السلام - .
وذيوار قوم لوط قريبة من ذيوار قوم شعيب ، إذ منازل مدين عند عقبة
أيلة بجوار معان مما يلي الحجاز ، وذيوار قوم لوط بتاحية الأردن إلى
البحر الميت .

وكان مدين بن إبراهيم - عليهما السلام - وهو جد قبيلة شعيب ، المسمى

باسمه ، متروجا بابنة لوط ، (١) .

ثم فتح لهم بعد ذلك باب الأمل في رحمة الله ، إن هم تابوا إليه - سبحانه -
وأتابوا فقال : واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود .

أى : واستغفروا ربكم من كل ما فرط منكم من ذنوب ثم توبوا إليه
توبة صادقة نصوحا .

« إن ربى ، ومالك أمرى » رحيم ، أى : واسع الرحمة لمن تاب إليه ، ودود ،
أى : كثير الود والمحبة لمن أطاعه .

وهكذا نجد شميعا - عليه السلام - وهو خطيب الأنبياء - يلون لقومه
النصح ، وينوع لهم المواعظ . ويطوف بهم في مجالات الترهيب والترهيب . .

ولكن القوم كانوا قد بلغوا من الفساد نهايته ، ومن الجهل أقصاه . . .
فقد ردوا على هذه النصائح الغالية بفولهم : « قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا
ما نقول ... »

أى : قال قوم شعيب له على سبيل التحدى والتكذيب : يا شعيب إننا
لا نفهم الكثير من قولك ، لأنه قول لم نألفه ولم نتقبله نفوسنا ، ولقد أطلت
فى دعوتنا إلى عبادة الله وترك النقص فى السكىل والميزان حتى مللنا دعوتك
وسئمتها ، وصارت ثقيلة على مسامعنا ، وخافية على عقولنا . .

فراهم بهذه الجملة الاستهانة به ، والصدود عنه ، كما بقول الرجل لمن
لا يعبا بحديته : لا أدى ما تقوله ، ولا أهم ما تنفوه به من ألفاظ .

قال : أبو السعرد ماملخصه : والفقه : معرفة غرض المتكلم من كلامه ،
أى : ما نفهم مرادك وإنما قالوا ذلك بعد أن سمعوا منه دلائل الحق البين على
أحسن وجه وأبلغه ، وضائق عليهم الحبل ، فلم يجدوا إلى محاورته سبيلا ...

(٢) تفسير التحرير والتنوير ج ١٢ ص ١٤٧ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور

كما هو ديدن المفحم المحجوج ، يقابل انصائح اليناث باسب والإبرار والإرعاد إذ جعلوا كلامه المشتعل على الحكم من قبيل مالا يفهم معناه (١)

ثم قالوا له - ثانيا - « ولما لئراك فبنا ضميغا ، أى : لاقوة لك إلى جان قوتنا ، ولا قدرة عندك على مقاومتنا إن أردنا قتلك أو طردك من قريتنا .

ثم قالوا له -- ثالثا - « ولولا رهطك لرجمناك ، ورهط الرجل : قومه وعشيرته الأقربون . ومنه الراهط لبحر اليربوع ، لأنه يحتمى فيه ...

ولفظ (الراهط) اسم جمع يطلق غالبا على العصابة دون العشرة .
والرجال ليس فيهم امرأة .

أى : ولولا عشيرتك التى هى على ملتنا وشريعتنا لرجمناك بالحجارة - تموت ، ولكن جاملتنا لعشيرتك التى كفرت بك هى التى جعلتنا نبقى عليك

ثم قالوا له - رابعا - (وما أنت علينا بعزى) أى : وما أنت علينا بمسك أو محبوب أو قوى حتى نمتنع عن رجلك ، بل أنت فينا الضعيف المسكروه

وهنا نجد شعيبا - عليه السلام - ينتقل فى أسلوب مخاطبته لهم من اللين إلى الشدة ، ومن التلطف إلى الإنكار ، دفاعا عن جلال ربه - سبحانه - فيه لهم : (قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله ...)

أى : أرهطى وعشيرتى الأقربون ، الذين من أجلهم لم ترجعونى ، وأكرم عندكم من الله - تعالى - الذى هو خالقكم ورازقكم ومميتكم ومحييكم (واتخذتموه وراكم ظهريا) أى : وجعلتم أوامره ونواهيه التى جئت بها من لدنه - سبحانه - كالشئ المنبوذ المهمل الملقى من وراء الظاهر بس كفركم وظفائكم (إن ربي بما تعملون محيط) أى : إن ربي قد أحاط :

بأقوالكم وأعمالكم السيئة ، وسيجازيكم عليها بما تستحقون من عذاب مهين .

ثم زاد في توبيخهم وتهديدهم فقال (ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعملون ، من يأتيه عذاب يخزيه ، ومن هو كاذب وارقبوا إني معكم رقيب) والمسافة مصدر مكن ككرم ، يقال مكن فلان من الشيء مكانه ، اذا تمكن منه أبلغ تمكن . والأمر في قوله (اعملوا) للتهديد والوعيد .

أى : اعملوا كل ما في إمكانكم عمله معى ، وابذلوا في تهديدي ووعدي ما شئتم ، فإن ذلك لن يضيرنى ، وكيف يضيرنى وأنا المتوكل على الله المعتمد على عونه ورعايته ... ؟

وإني سأقابل عملكم السيء هذا بعمل آخر حسن من جانبي ، وهو الدعوة إلى وحدانية الله - تعالى - وإلى مكارم الأخلاق .

وقوله : سوف تعملون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ... ، مستغاف مؤكّد لتهديده لهم .

أى : اعملوا ما شئتم وأنا سأعمل ما شئت . فإنكم بعد ذلك سوف تعملون من منا الذى سينزل به عذاب يخزيه وبفضحه ويهينه ، ومن منا الذى هو كاذب في قوله وعمله .

« وارقبوا ، عاقبة تكذيبكم للحق » إني معكم رقيب ، أى : إني معكم منتظر ومراقب لما سيفعله الله - تعالى - بكم .

وبذلك نرى شعيبا - عليه السلام - فى هاتين الآيتين ، قد استعمل مع قومه أسلوبا آخر فى المخاطبة ، يمتاز بالشدة عليهم والتهديد لهم ، لا غضبا لنفسه ، وإنما لأجل حرمان الله - تعالى - ، والدفاع عن دينه .

ولم يطل انتظار شعيب - عليه السلام - ومراقبته لم يحدث لقومه ، بل جاء عقاب الله - تعالى - لهم بسرعة وحسم ، بعد أن لجوا فى طغيانهم ، وقد

حكى - سبحانه - ذلك فقال : ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا ...

أى : وحين جاء أمرنا بعدابهم ، وحل أوان هذا العذاب ، نجينا نبينا شعيبا ونجينا الذين آمنوا به وصدقوه ، حالة كونهم مضحوبين برحمة عظيمة كائنة مثلا لأن غيرنا .

، وأخذت الذين ظلموا ، من قومه ، الصيحة ، التى زلزلتهم وأهلكتهم ، فأصبحوا فى ديارهم ، التى كانوا يسكنونها .

، جائين ، أى : هامين ميتين لانهن لهم حركة ، ولا تسمع لهم ركزا .. من الجنوم وهو للناس والطير بمنزلة البروك للإبل . يقال . جنم الطائر يجنم جثما وجمما فهو جائم إذا وقع على صدره ولزم مكانه فلم يبرحه .

، كان لم يغنوا فيها ، أى : كان هؤلاء الهلكى من قوم شعيب ، لم يعيشوا فى ديارهم قبل ذلك عيشة ملاؤها الرغد والرخاء والأمان ...

يقال : غنى فلان بالمسكان ، إذا أقام به وعاش فيه فى نعمة ورغد ...
، ألا بعدا للمدين كما بعدت نمود ، أى : ألا هلا كما مضى بالخزى والمحنة والطرد من رحمة الله لقبيلة مدين ، كما هلك من قبلهم قبيلة نمود .

وهكذا طويت صفحة أخرى من صفحات الظالمين وهم قوم شعيب ... عليه السلام -- كما طويت من قبلهم صفحات قوم نوح وهود وصالح ولوط -- عليه السلام .

هذا ، ومن أم العبر والعظات التى تتجلى واضحة فى قصة شعيب مع قومه كما جاءت فى هذه السورة الكريمة :

أن الداعى إلى الله لىكى ينجح فى دعوته ، عليه أن ينوع خطابه للدعويين ، بحيث يشتمل توجيها على الترييب والترهيب ، وعلى الأسباب وما تؤدى إليه من نتائج ، وعلى ما يقنع العقل ويقنع العاطفة

ففي هذه القصة نجد شعبيا - عليه السلام - يبد أدعوتيه بأمر قومه بمباداة الله - تعالى - ، ثم ينهاهم عن أبرز الرذائل التي كانت منتشرة وهي نقص المكيال والميزان ، ثم يبين لهم الأسباب التي حملته على ذلك : « لاني أراكم بخير ولاني أخاف عليكم عذاب يوم محيط » .

ثم ينهاهم نهيا عاما عن الإفساد في الأرض « ولا تعثوا في الأرض مفسدين » ، ثم يرشدهم إلى أن الرزق الحلال مع الإيمان والاستقامة ، خير لهم من التثبيغ بزينة الحياة الدنيا بدون تمييز بين ماهر صالح وما هو طالح : « بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين »

ثم يذكرهم بأنه لا يأمرهم إلا بما يأمر به نفسه ، ولا ينهاهم إلا عما ينهأها عنه وأنه ليس ممن يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، وما يريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت

ثم يذكرهم بمصارع السابقين ، ويحذرهم من أن يسلكوا مسلكهم ، لأنهم لو فعلوا ذلك لهلكوا كما هلك الذين قبلهم : « ويا قوم لا يجر منكم شقاق في أن يصيبيكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح »

ثم يفتح لهم باب الأمل في عفو الله عنهم متى استغفروه وتابوا إليه : « واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود » .

ثم نراه يشور عليهم عندما يراهم يتجاوزون حدودهم بالذنبية لله - تعالى - وللحق الذي جاءهم به من عنده : « سبحانه » : أرهطى أعز عليكم من الله ، واتخذتموه وراءكم ظهريا ، إن ربي بما تعملون محيط . ويا قوم اعملوا على مكانتكم لاني عامل سوف تعلمون

وهكذا نجد شعبيا - عليه السلام - وهو خطيب الأنبياء كما وصفه الرسول - صلى الله عليه وسلم - يرشد قومه إلى ما يصلحهم ويسعدهم بأسلوب حكيم ، جامع لكل ألوان التأثير ، والتوجيه السديد .

وايت الدعاة إلى الله في كل زمان ومكان يتعلمون من قصة شعيب - عليه السلام - مع قومه أسلوب الدعوة إلى الله - تعالى - .

• • •

ثم ختمت السورة الكريمة حديثها عن قصص الأنبياء مع أقوامهم ، بالإشارة إلى قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملئه ، فقال - تعالى - :

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) » .

وموسى - عليه السلام - هو ابن عمران ، من نسل « لاوى » بن يعقوب ، ويرى بعض المؤرخين أن ولادة موسى كانت في حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وأن بعثته كانت في عهد منفتاح بن رمسيس الثانى .

والمراد بالآيات : الآيات التسع المشار إليها في قوله - تعالى - « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ » (١) .

وهى : العصا ، واليد البيضاء ، والسنون العجاف ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

والسلطان المبين : الحجة الواضحة ، والبرهان الظاهر على صدقه ، وسمى ذلك سلطانا لأن صاحب الحجة والبرهان على ما يدعى ، بقر ويغلب من لاجحة ولا برهان معه ، كما يقهر السلطان غيره .

واللهنى : ولقد أرسلنا نبينا موسى - عليه السلام - بمعجزاتنا الدالة على صدقه ، وبحجته القوية الواضحة ، ^١ الشاهدة على أنه رسول من عندنا ، إلى فرعون وملئه الذين هم خاصته ، وسادات قومه وكبرائهم . . .

وخصهم بالذكر مع فرعون ، لأنهم هم الذين كانوا ينفذون أوامره ، ويعاونونه على فسادهم والضمير في قوله : فاتبعوا أمر فرعون ، يعود إلى الملأ .
أى : فاتبعوا أمره في كل ما قرره من كفر ، وفي كل ما أشار به من فساد .
وفي هذه الجملة الكريمة - كما يقول الزخشرى - تجهيل لهم ، حيث شايعوه على أمره ، وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل ، وذلك أنه ادعى الألوهية وهو بشر مثلهم ، وجاهر بالمسء والظلم والشرا الذى لا يأتى إلا من شيطان مارد ، فاتبعوه وسلوا له دعواه ، وتتابعوا على طاعته .

وقال - سبحانه - : فاتبعوا ، ولم يقل فاتبعوا أمره ، للتفهير به ، والإعلان عن دمه الذى صرح به فى قوله - سبحانه - : وما أمر فرعون برشيد . .

والرشيد بزنة - فعيل - من الفعل رشد من باب نصر وفتح : هو الشخص المتصف بإصابة الرأى ، وجودة التفكر ، وأضيف الرشد إلى الأمر على سبيل المجاز ، مبالغة فى اشتغال أمر فرعون على ما يناقض الرشد والساداد ، ويطلق النى والفساد .

أى : ما شأن فرعون وأمره بنى رشد وهدى ، بل هو محض النى والضلال ، فكان من الواجب على ملئه أن ينبذوه ويهملوه ، بدل أن يطيعوه ويتبعوه

ثم بين - سبحانه - سوء مصيره ومصير أتباعه فقال : ه يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبشئ الورد المورود . .

ويقدم - كنصر - بمعنى يتقدم مأخوذ من الفعل قدم - بفتح الدال -

تقول : قدم الرجل بقدم قدماً وقدموا بمعنى : تقدم ، ومنه قادمة الرجل بمعنى مقدمته .

وقوله ، فأوردكم ، من الإيراد وهو جعل الشيء وارداً إلى المسكان .
وداخلا فيها .

والورد - بكسر الواو - يطبق على الماء الذي يرد إليه الإنسان والحيوان للشرب .

والمعنى : يتقدم فرعون قومه يوم القيامة إلى جهنم ، كما كان يتقدمهم في الكفر في الدنيا ، فأوردكم النار ، أى : فدخلها وأدخلهم معه فيها .

وعبر بالماضى مع أن ذلك سيكون يوم القيامة ، لتحقيق الوقوع وتأكيده .
وقد صرح القرآن بأنهم سيدخلون النار بمجرد موتهم فقال - تعالى - :
« النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » (١) .

وقوله ، وبئس الورد المورود ، أى : وبئس الورد الذى يردونه النار .
لأن الورد - الذى هو النصيب المقدر للإنسان من الماء - إنما يذهب إليه قاصده لتسكين عطشه ، وإرواء ظمئه ، وهؤلاء إنما يذهبون إلى النار التى هى الضد من ذلك .

ثم صرح - سبحانه - بلعنهم فى الدارين فقال : « وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة ، ... »

أى : إن اللعنة والفضيحة لحقت بهم واتبعهم فى الدنيا وفى الآخرة ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : « وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين » (٢) .

(١) سورة غافر الآية ٤٥ .

(٢) سورة القصص الآية ٤٢ .

وجملة «بئس الرفد المرفود» مستأنفة لإنشاء ذم اللعنة ، والمخصوص بالنذم
محذوف دل عليه ذكر اللعنة . أى بئس الرفد هـ .

الرفد العطاء المعطى لهم تلك اللعنة المضاعفة التى لا يستهم فى الدنيا
والآخرة .

وسميت اللعنة رفدا على سبيل التهكم بهم ، كما فى قول القائل : تحية بينهم
ضرب وجيع فكأنه - سبحانه - يقول : هذه اللعنة هى العطاء المعطى من
فرعون لاتباعه الذين كانوا من خلفه كقطيع الأغنام الذى يسير خلف قائده
بدون تفكير أو تدبر

وبئس العطاء عطاؤه لهم ...

وإلى هنا تكون هذه السورة الكريمة قد حدثتنا عن قصة نوح مع قومه ،
وعن قصة هود مع قومه ، وعن قصة صالح مع قومه ، وعن قصة إبراهيم مع
الملائكة ، وعن قصة لوط مع قومه ومع الملائكة ، وعن قصة شعيب مع
قومه ، وعن قصة موسى مع فرعون وملئه .

ويلاحظ أن السورة الكريمة قد ساق لنا تلك القصص حسب ترتيبها
التاريخى والزمنى ، لأهداف من أهمها :

١ - إبراز وحدة العقيدة فى دعوة الأنبياء جميعا ، فمكل نبي قد قال
لقومه : أعبدوا الله ما لكم من إله غيره ... ثم يسوق لهم الأدلة على صدقه
فيما يبلغه عن ربه .

٢ - إبراز أن الناس فى كل زمان ومكان فهم الاختيار الذين يتبعون
الرسول ، وفيهم الأشرار الذين يحاربون الحق

٣ - بيان العاقبة الحسنة التى انتهى إليها المؤمنون بسبب إيمانهم وصدقهم
وعملهم الصالح والعاقبة السيئة التى انتهى إليها الكافرون بسبب كفرهم
ولمعرضهم عن الحق ...

قال - تعالى - « فكللا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذنا ذنبه العصية ، ومنهم من خسفتنا به الأرض . ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله يظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

• • •

ثم ساق السورة بعد ذلك حتى نهايتها آيات كريمة ، اشتملت على تعليقات وتعقيبات متنوعة ، وهذه التعليقات والتعقيبات قوية الصلة بما سبقها من آيات

وكان التعقيب الأول يهدف إلى بيان أن هذه القرى المهلكة التي منها ما هو قائم ومنها ما هو حصيد ، ما ظلم الله - تعالى - أهلها ، وامكن هم الذين ظلموا أنفسهم بعصيانهم الرسل ، وإصرارهم على الكفر والعناد . قال - تعالى - :

« ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) . وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلَتُهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيبٍ (١٠١) . وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) » .

أى : ذلك الذى قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - فى هذه السورة الكريمة ، هو جزء من أنباء القرى ، المهلكة .

ونحن ، نقصه عليك ، فى هذا القرآن عن طريق وحيتنا الصادق ، ليعتبر به الناس ، وليعلموا أن هذا القرآن المشتمل على هذا القصص الذى لاعلم لهم به من عند الله .

وافتح - سبحانه - الكلام باسم الإغارة المفيد للبعد ، للتنويه بشأن هذه الأنباء التي سبق الحديث عنها ، والإشعار بأنها أنباء هامة فيها الكثير من العظات والعبر اقوم يعقلون .

والضمير في قوله . منها قائم وحصيد ، يعود إلى تلك القرى المهلكة ، والجملة مستأنفة للتحريض على النظر والاعتبار ، فكان سائلا سأل ما حال هذه القرى أباقية آثارها أم عفى عليها الزمن ؟ فكان الجواب منها قائم وحصيد .

أى : من هذه القرى المهلكة ما آثارها ما زالت قائمة يراها الناظر إليها ، كما آثار قوم نود .

ومنها ما آثارها عفت وزالت وانطمست وصارت كالزرع المحصود الذي استوصل بقطعه ، فلم تبق منه باقية ، كديار قوم نوح .

ففي هذه الجملة الكريمة تشبيه بليغ ، حيث [شبه - سبحانه - القرى التي بمض آثارها ما زال باقيا بالزرع القائم على ساقه ، وشبه ما زال منها واندر بالزرع المحصود .

وحصيد مبتدأ محذوف الخبر لدلالة ما قبله عليه . أى منها قائم ومنها حصيد .

وقوله - سبحانه - وما ظلماتهم ولكن ظللوا أنفسهم ... ، بيان لمظاهر عدله في قضائه وأحكامه .

والضمير المنصوب في « ظللناهم » ، يعود إلى أهل هذه القرى ، لأنهم هم المقصودون بالحديث .

أى : وما ظلماتهم أهل هذه القرى ياهلا كنا لإيامهم ، ولكنهم هم الذين ظللوا أنفسهم ، بسبب إصرارهم على الكفر ، وجحودهم للحق ، واستهزائهم بالرسول الذين جاءوا لهدايتهم ...

ثم بين - سبحانه - موقف آلهم الغزى منهم فقال : « فا أغنت عنهم آلهم التى يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ... »

أى : أن هؤلاء المبدكين عندما نزل بهم العذاب ، لم تنفعهم أصنامهم التى كانوا يعبدونها من دون الله شيئاً من النفع ... بل هى لم تنفع نفسها فقد اندثرت معهم كما اندثروا ،

والقاء فى قوله - سبحانه - « فا أغنت ... » ، للتفريع على ظلمهم لأنفسهم ، لأن اعتمادهم على شفاعاة الأصنام ، وعلى دفاعها عنهم ... من مظاهر جهلهم وغبائهم وظلمهم لأنفسهم .

و من ، فى قوله : « من شيء » ، لتأكيد انتفاء النفع والإغناء : أى : لم تنفع عنهم شيئاً ولو قليلاً من الاغناء ؛ ولم تنفعهم لافى قليل ولا كثير ...
وجملة « وما زادوهم غير تنبيي » ، تأكيد لتنى النفع ، ولإثبات للضر والخسران .

والتنبيي : مصدر تب بمعنى خسر . وتب فلان فلاناً إذا أوقعه فى الخسران .

ومن قوله - تعالى - « تب يدا أبى لهب وتب » ، أى : هلكا وخسرتا كما قد هلك وخسر هو .

أى : وما زادتهم أصنامهم التى كانوا يعتمدون عليها فى دفع الضر سوى الخسران والهلاك .

قال الإمام الرازى : والمعنى أن الكفار كانوا يعتقدون فى الأصنام أنها تعين على تحصيل المنافع ودفع المضار . ثم إنه - تعالى - أخبر أنهم عند مساس الحاجة إلى المعين . ما وجدوا منها شيئاً لا جلب نفع ولا دفع ضر ، ثم كالم يجدوا ذلك فقد وجدوا ضده ، وهو أن ذلك الاعتقاد زالت عنهم به منافع الدنيا والآخرة ، وجلب لهم مضارهما ، فكان ذلك من أعظم موجبات

الخسران ، (١) .

ثم بين - سبحانه - عاقب الظالمين في كل زمان ومكان فقال :
« وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ... »

والكاف في « وكذلك » ، بمعنى مثل . والمراد بالقرى : أهلها الظالمون .
والأخذ : هو العقاب المباغت السريع : يقال أخذ فلان الموت ، إذا نزل
به بسرعة وقوة .

أي : ومثل ذلك الأخذ والهلاك للظالمين السابقين ، يكون أخذ ربك وعقابه
لكل ظالم يأتي بعدهم وينهجم نهجم .

وجملة « وهي ظالمة » ، في موضع الحال من القرى ، وفائدة هذه الحال
الإشعار بأن عقابهم كان بسبب ظلمهم ، وفي ذلك مافيه من التحذير لكل ظالم
لا يبادر بالإفلاق عن ظلمه قبل فوات الأوان .

والمراد بالظلم ما يشمل الكفر وغيره من الجرائم والمعاصي التي نهي عنها ،
كالكذب وشهادة الزور ، وأكل أموال الناس بالباطل .

وقوله : « إن أخذه أليم شديد » ، زيادة في التحذير من الوقوع في الظلم .
أي : « إن أخذه - سبحانه - للظالمين عظيم إيلامه ، شديد وقعه ، لا هوادة
فيه ، ولا مخلص منه . »

روى الشيخان عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - قال : « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . » ثم قرأ رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن
أخذه أليم شديد » (٢) .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٨ ص ٥٦

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٧٩

ثم بين - سبحانه - أن ما ساقه في هذا القرآن عن أحوال السابقين فيه العبرة لمن اعتبر ، وفيه العظة لمن خاف عذاب الآخرة الذي ينقسم الناس فيه إلى شقي وسعيد ، فقال - تعالى - :

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مُّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمَن شِئِيَّ وَشِئِيَّ وَشِئِيَّ (١٠٥) وَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهْمٌ فِيهَا زَفِيرٌ وَشِهيقٌ (١٠٥) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ، إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ سُمِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مُجْدُودٍ (١٠٧) » .

أى : إن في ذلك ، القصص الذى قصصناه عليك - يا محمد - : والمشتغل على بيان سنة الله التى لا تتخلف فى إهلاك الظالمين .

« لآية ، أى : لعبرة عظيمة ، وعظة بليغة ، وحجة واضحة :

لمن خاف عذاب الآخرة ، لأنه هو المنتفع بالعبر والعظات لصدق إيمانه ، وصفاء نفسه ، وإبقائه بأن هناك فى الآخرة ثوابا وعقابا ، وحسابا على الأعمال الدنيوية ..

أما الذى ينكر الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ، إفاقه لا يعتبر بما أصاب الظالمين من عذاب دنيوى دمرهم تدميرا ، بل ينسب ذلك إلى أسباب طبيعية أو فلسفية أو غيرها ، لا علاقة لها بكفرهم وظلمهم وظفيعاتهم

ولأن الخائف من عذاب الآخرة ، عندما يرى ما حل بالمجرمين فى الدنيا

من عقاب ، يزداد إيماناً على إيمانه ، وتصديقا على تصديقه ، بأن الله - تعالى - قادر على أن يعذبهم في الآخرة عذاباً أشد وأبقى من عذاب الدنيا ...

ثم بين - سبحانه - أن يوم القيامة آت لا ريب فيه فقال : ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود :

واسم الإشارة في الموضعين ، يعود إلى يوم القيامة المدلول عليه بذكر عذاب الآخرة قبل ذلك . واللام في قوله - سبحانه - « مجموع له » لام البهلة .

أى : ذلك اليوم وهو يوم القيامة ، يوم يجمع الناس فيه لأجل محاسبتهم ونجازاتهم على أعمالهم ، ولشهادة جميع الخلائق الذين يؤمرون بشهوده ، دون أن يغيب منهم أحد قال صاحب الكشف : ود الناس ، رفع باسم المفعول الذى هو (مجموع) كما يرفع بفعله إذا قلت يجمع له الناس .

فإن قلت : لآى فائدة أثر لاسم المفعول على فعله ؟

قلت : لما فى اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم ، وأنه يوم لا بد من أن يكون ميّحدا مضروبا لجمع الناس له ، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة . وهذا أثبت - أيضا - لإسناد الجمع إلى الناس وأنهم لا ينفكون منه .

ونظيره قول المتهدد : إنك لمنهوب مالك ، محروب قومك ، فيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس فى الفعل

والمراد بالمشهود : الذى كثر شاهده ، ومنه قولهم : لفلان مجلس ، مشهود ، وطعام محضور ... والغرض من ذلك ، وصف هذا اليوم بالهول والعظم وتمييزه من بين الأيام . بأنه اليوم الذى يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد (١)

ثم قال - تعالى - « وما تؤخره إلا لأجل معدود ،

والأجل في اللغة : الوقت المضروب لانتها مدة معينة . فأجل الإنسان
هو الوقت المحدد لانقضاء عمره .

والمعدود : أصله المحسوب ، والمراد به هنا : المحدد بمدة معينة لا يزيد عليها
ولا يتأخر عنها .

أى : أننا لا تؤخر هذا اليوم إلا لوقت محدود معلوم لنا ، فإذا ما جاء موعد
هذا الوقت ، حل هذا اليوم الهائل الشديد وهو يوم القيامة ، الذى اقتضت
حكمتنا عدم اطلاع أحد على مواعده .

ثم ذكر - سبحانه - جانباً من أهوال هذا اليوم ، ومن أحوال الناس
فيه فقال : « يوم يأتى لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى سعيد ،

والشقى : صفة مشبهة من الفعل شقى ، وهو الشخص المتلبس بالشقاوة
والشقاء ، - أى : - سوء الحال - بسبب إشارته الضلالة على الهداية ، والباطل
على الحق ...

والسعيد : هو الشخص المتلبس بالسعادة ، وبالأحوال الحسنة بسبب إيمانه
وعمله الصالح .

والمعنى : حين يأتى هذا اليوم ، وهو يوم القيامة ، لا تكلم فيه نفس بأى
كلام إلا بإذن الله - تعالى - ويكون الناس فيه منقسمين إلى قسمين : قسم
شقى معذب بسبب كفره ، وسوء عمله ، وتفریطه فى حقوق الله ...

وقسم سعيد منعم بسبب إيمانه ، وعمله الصالح ...

فإن قيل : كيف نجمع بين هذه الآية التى تنفى الكلام عن كل نفس إلا
 بإذن الله وبين قوله - تعالى - « يوم تأتى كل نفس مجادل عن نفسها ... »

فالجواب : أن في يوم القيامة مواقف متعددة ، ففي بعضها يجادل الناس عن أنفسهم ، وفي بعضها يكفون عن الكلام إلا بإذن الله ، وفي بعضها يختم على أفواههم ، وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ...

وفي هذه الآية الكريمة لإبطال لما زعمه المشركون من أن أصنامهم ستدافع عنهم ، وستقضي لهم يوم القيامة .

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - يوم يأت لانكلم نفس إلا بإذنه ... أي : يوم يأتي هذا اليوم وهو يوم القيامة ، لا يتكلم أحد إلا بإذن الله - تعالى - كما قال - سبحانه - : يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً (١)

وقال - سبحانه - : وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ، (٢)
- في الصحيحين عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في حديث الشفاعة الطويل : - ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوة الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم ، (٣)

تم فصل - سبحانه - أحوال الأشقياء والسعداء فقال : : فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق ،

قال الألوشي : قال الراغب : الزفير ترديد النفس حتى تفتتح الضلوع منه مأخوذ من زفر فلان إذا حمل حملاً مشقة فتردد فيه نفسه . ومنه قيل للإمام الحاملات الماء زوافر .

والشهيق . رد النفس إلى الصدر بصعوبة وعناء .

(١) سورة النبا الآية ٢٨

(٢) سورة طه الآية ١٠٨

(٣) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٧٩

والمراد بهما : الدلالة على شدة كربهم وغمهم ، وتشبيه حالهم بحال من استولت على قلبه الحرارة ، واستبد به الضيق - حتى صار في كرب شديد (١) والمعنى : فأما الذين كان نصيبهم الشقاء في الآخرة ، بسبب كفرهم واقترافهم للمعاصي في الدنيا ، فصيرهم الإستقرار في النار ، لهم فيها ضيق الأتقاس . وخرج الصدور . وشدة الكروب ما يجعلهم يفضلون الموت على ما هم فيه من هم وغم . ونخص - سبحانه - من بين أحوالهم الآلية حالة الزفير والانسحاب ؛ تفكيراً من الأسباب التي توصل إلى النار . وتشبيهاً لتلك الحالة التي فيها ما فيها من سوء المنظر . وتعاسة الحال ...

ثم أكد - سبحانه - خلودهم في النار فقال : خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ...

أي أن الأشقياء لهم في النار العذاب الأليم . وهم ما يكون فيها مكث بقاء وخلود لا يبرحونها مدة دوام السموات التي تظلمهم . والأرض التي تظلمهم فهو في معنى قوله - تعالى - (خالدين فيها أبداً)

قال الألوسي مالم يخلصه : والمقصود من هذا التعبير : التأييد ونفي الانقطاع على مناج قول العرب لا أفعل كذا ، ملاح كوكب ، وما أضواء الفجر ، وما اختلف الليل والنهار ... إلى غير ذلك من كلمات التأييد عند ...

وليس المقصود منه تعليق قراهم فيها بدوام هذه السموات والأرض ، فإن النصوص القاطعة دالة على تأييد قراهم فيها .

وجوز أن يحمل ذلك على التعليق ، وبراد بالسموات والأرض ، سماوات الآخرة وأرضها ، وهما دائمتان أبداً ... (٢)

(١) تفسير الألوسي > ١٢ ص ١٢٦

(٢) تفسير الألوسي > ١٢ ص ١٢٦

أما قوله - سبحانه - (إلا ما شاء بك) فقد ذكر العلماء في المقصود به أقوالاً متعددة أوصلها بمضمم إلى ثلاثة عشر قولاً من أشهرها :

أن هذا الاستثناء في معنى الشرط ، فكأنه - سبحانه - يقول :

١ - خالدين فيها خلوداً أبدياً إن شاء ربك ذلك ، إذ كل شيء خاضع لمشيئة ربك وإرادته ..

وعليه يكون المقصود من هذا الاستثناء وأمثاله ، إرشاد العباد إلى وجوب تفويض الأمور إليه - سبحانه - وإعلامهم بأن كل شيء خاضع لإرادته ومشئته ، فهو الفاعل المختار الذي لا يجب عليه شيء ، ولا حق لأحد عليه (إن ربك فعال لما يريد)

وليس المقصود من هذا الاستثناء وأمثاله ، نفي خلودهم في النار ، لأنه لا يلزم من الاستثناء المعلق على المشيئة وقوع المشيئة ، ولأنه قد أخبرنا - سبحانه - في كتابه بخلود الكافرين خلوداً أبدياً في النار .

قال - تعالى - إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً . إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً ^(١)

وشبه هذا الاستثناء ما حكاه - سبحانه - عن نبيه شعيب - عليه السلام - في قوله :

وقال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أو لو كنا كارهين . قد افترينا على الله كذباً أن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شيء علماً ^(٢) .

(١) سورة النساء . الآيتان ١٦٧ ، ١٦٨

(٢) راجع تفسيرنا لسورة الأعراف ص ١٢٠ .

فشعيب - عليه السلام - مع ثقته المطلقة في أنه لن يعود هو وأتباعه إلى
ملة الكفر ، نراه يفوض الأمر إلى مشيئة الله فأدبا معه - سبحانه - ...
فيقول : وما يكون لنا أن نعود فيها - أي ملة الكفر - إلا أن يشاء
ربنا شيئا غير ذلك وهذا من الأدب العالي في مخاطبة الأنبياء لخالفهم
- عز وجل - .

وقد ذكر كثير من المفسرين هذا القول ضمن الأقوال في معنى الآية ،
وبعضهم اقتصر عليه ولم يذكر سواه ، ومن هذا البعض صاحب المنار ،
وصاحب محاسن التأويل ...

أما صاحب المنار فقد قال : قوله ، إلا ما شاء ربك ، أي : أن هذا الخلود
الدائم هو المعد لهم في الآخرة إلا ما شاء ربك من تغيير في هذا النظام
في طور آخر ، فهم إنما وضع بمشيئته ، وسيبقى في قبضة مشيئته ، وقد عهد
مثل هذا الاستثناء في سياق الأحكام القطعية للدلالة على تقييد تأييدها بمشيئة
الله - تعالى - فقط ، لا لإفادة عدم عمومها (١) .

وأما صاحب محاسن التأويل فقد قال : فإن قلت : ما معنى الاستثناء بالمشيئة ،
وقد ثبت خلود أهل الدارين فيهما من غير استثناء ؟

فالجواب : أن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل في أسلوب القرآن ، للدلالة
على الثبوت والاستمرار .

والنسكتة في الاستثناء بيان أن هذه الأمور الثابتة الدائمة ، إنما كانت
كذلك بمشيئة الله - تعالى - لا بطبيعتها في نفسها ، ولو شاء - تعالى - أن
يغيرها لفعل .

وابن كثير قد أشار إلى ذلك بقوله : « يعني أن دوامهم فيها ليس أمر

واجباً بذاته ، بل هو موكول إلى مشيئته - تعالى - ، (١) .

٢ - أن الاستثناء هنا خاص بالعصاة من المؤمنين .

ومن العلماء الذين رجحوا هذا القول الإمامان : ابن جرير وابن كثير .

أما ابن جرير فقد قال مملخصه بعد أن سرد الأقوال في ذلك :

« وأرى الأقوال في تأويل هذه الآية بالصواب ، القول الذي ذكرناه عن الضحاك وقتادة من أن ذلك استثناء في أهل التوحيد من أهل الكبائر ، أنه يدخلهم النار خالدين فيها أبداً ، إلا ما شاء تركهم فيها أقل من ذلك ، ثم يخرجهم فيدخلهم الجنة - أي العصاة من المؤمنين - . . . » (٢) .

وأما ابن كثير فقد وضع ما اختاره ابن جرير ورجحه فقال مملخصه :

« وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة . . . نقل كثير منها الإمام ابن جرير ، واختار : أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعاة الصالحين ، من الملائكة والنبیین والمؤمنين ، حين يشفعون في أصحاب الكبائر ، ثم تاتي رحمة أرحم الراحمين ، فتخرج من النار من لم يعمل خيراً قط ، وقال يوماً من الدهر : لا إله إلا الله ، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ولا يبنى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ، ولا يحيد له عنها ، وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً في تفسير هذه الآية السكرية » (٣) .

وقد ذكر الشيخ الشوكاني هذا القول ضمن أحد عشر قولاً فقال

ما ملخصه :

(١) تفسير القاسمي ٩ ص ٣٤٨٦ .

(٢) تفسير ابن جرير ١٢ ص ٧٠ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤ ص ٢٨١ .

وقوله ، إلا ما شاء ربك : قد اختلف أهل العلم في هذا الاستثناء على أقوال منها :

(أ) أنه من قوله « ففى النار » كأنه قال : إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك ...

(ب) أن الاستثناء إنما هو للعصاة من الموحدين ، فإنهم يخرجون بعد مدة من النار ، وعلى هذا يكون قوله « فأما الذين شهقوا » عاما فى الكفرة والعصاة ، ويكون الاستثناء من خالدين ، وتكون « ما » بمعنى « من » ، وقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواترا يفيد العلم الضرورى بأنه يخرج من النار أهل التوحيد ، فكان ذلك مخصصا لكل عموم .

(ج) أن الاستثناء من الزفير والشهيق . أى لهم فيها زفير وشهيق ، إلا ما شاء ربك ، من أنواع العذاب غير الزفير والشهيق (١) .
ويبدو لنا أن رأى الأول أرجح الآراء ، ويشهد لهذا قوله - تعالى -
بعد ذلك :

« إن ربك فعال لما يريد ، أى فهو إن شاء غير ذلك فعله ، وإن شاء ذلك فعله ، ما شاء من الأفعال كان وما لم يشأ لم يكن .

وجاء - سبحانه - بصيغة المبالغة ، للإشارة إلى أنه - سبحانه - لا يتعاضى عليه فعل من الأفعال بأى وجه من الوجوه .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة السعداء فقال : « وأما الذين سعدوا ، أى فى الآخرة بسبب إيمانهم وتقواهم فى الدنيا ، ففى الجنة خالدين فيها إلا ما شاء ربك عطا . غير مجزوز ، .

أى : عطاء منه - سبحانه - لهم غير مقطوع عنهم . يقال : جذ التى يجذم

جدا ، أى : كسره وقطعه ، ومنه الجذاذ - بضم الجيم - لما تكسر من
كما فى قوله - تعالى - حكاية عما فعله إبراهيم - عليه السلام - بالأصنام .
جذاذا إلا كبيرا لهم . . .

وبذلك نرى أن هذه الآيات قد فصلت أحوال السعداء والأشقاء
تفصيلا يدعو العقلاء إلى أن يسلكوا طريق السعداء ، وأن يتجنبوا
الأشقياء .

• • •

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك من الآيات ما فيه تسلية للنبي - صلى الله عليه وسلم - عما أحابه من قومه من أذى ، وما فيه تثبيت لقلوب المؤمنين ، و
إرشاد لهم إلى ما يقربهم من الخير ، ويبعدهم عن الشر فقال - تعالى - :

« فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءُ ، مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ
مِن قَبْلُ ، وَإِنَّا لَنُوقُوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (١٠٩) وَلَقَدْ آتَيْنَا
الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّى بَيْنَهُمْ
وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْيَبٌ (١١٠) وَإِنْ كَلَّا لَمَا لُيُوفِيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَ
إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ
تَطَفَّؤْا ، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ
فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ (١١٣)
وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَى النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ
ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ
الْمُحْسِنِينَ (١١٥) » .

قال الفخر الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما شرح أفاضل عبدة الآ

ثم أتبع بأحوال الأشقياء وأحوال السعداء شرح الرسول صلى الله عليه وسلم -
أحوال الكفار من قومه فقال : ، فلا تك في مرة . . . ، والمعنى : فلا تكن ،
إلا أنه حذف النون لكثرة الاستعمال . ولأن حرف النون إذا وقع على
طرف الكلام ، لم يبق عند التلغظ ، إلا مجرد الغنة ، فلا جرم أسقطوه . (١)

والمرية - بكسر الميم - اشك المتفرع عن محاجة ومجادلة بين المتخاصمين .
والمعنى : لقد قصصنا عليك أيها الرسول الكريم الكثير من أخبار السابقين
وبينا لك مصير السعداء والأشقياء . . . وما دام الأمر كذلك ، فلا تك في شك
من أن عبادة هؤلاء المشركين لأصنامهم إنما هي تقليد لما كان يعبد آباؤهم
من قبل ، وهذه العبادة لغير الله - تعالى - ستؤدي بالجميع إلى سوء العاقبة . وإلى
العذاب الأليم .

والخطاب وإن كان للرسول - صلى الله عليه وسلم - على سبيل التسلية
والتبشير ، إلا أن التحذير فيه يندرج تحت كل من يصلح للخطاب .

وهذا الأسلوب كثيرا ما يكون أوقع في النفس : وأشد تأثيرا في القلب ،
لأنه يشمر المخاطب بأن ما بينه الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - إنما
هو من قبيل القضايا الموضوعية التي لا تحتاج إلى جدال مع أحد ، ومن جادل
فيها فإنما يجادل في الحق الواضح بدافع الحسد والعناد ، لأن الواقع يشهد بصحة
ما بينه الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - .

وجملة ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل ، مستأنفة ، لبيان أن الخلف
قد ساروا في الجمالة والجمود على طريقة السلف .

وعبر عن عبادة الآباء بالمضارع ، مع أنها كانت في الماضي بقرينة من
قبل ، . للدلالة على استمرارهم على هذه العبادة الباطلة حتى موتهم ، وأن

أبناءؤهم لم ينتظموا عنها ، بل واصلوا السير على طريق آباءهم الضالين
تفكر أو تدبر .

والمضاف لإياه في قوله « من قبل ، محذوف ، والتقدير : من قبلهم .
وقوله « ولما لموفوهم نصيبهم غير منقوص ، تدبيل قصد به تأكيد
الذى سينزل بهم في الآخرة بسبب عبادتهم لغير الله .
وموفوهم من التوفيق ، وهى إعطاء الشئ كاملا بدون نقص .

والمراد بالنصيب هنا : المقدار المعد لهم من العذاب ، وصماه نصيبا على
التهكم بهم .

أى : ولما لمعطو هؤلاء الذين نهجوا منهج آباءهم في عبادة غير الله ، فـ
وحظهم من عذاب الآخرة كاملا بدون إنقاص شئ منه ، كما ساروا
طريقة سلفهم في الضلال دون أن يغيروا شيئا منها ...

ومضمم من جعل المراد بالنصيب هنا : ما يشمل الجزاء على الأعمال الد
والآخروية .

قال صاحب المنار : أى . ولما لمعطوهم نصيبهم من جزاء أعمالهم في
والآخرة وأفيا تاما لا ينقص منه شئ . ، كما وفيما آباءهم الأولين من
فإنه ما من خير يعمله أحد منهم كبر الوالدين وصلة الأرحام ... إلأوى
الله جزاءهم عليه في الدنيا بسعة الرزق ، وكشف الضر جزاء تاما ، لا يـ
شئ يجوزون عليه في الآخرة (١)

ويبدو لنا أن رأى الأول أقرب إلى الصواب ، لأن سياق
الكنزة يؤيده إذ الكلام فيها فى شأن جزاء الذين ساروا على نهج آباء
الضلال ، وليس فى بيان الجزاء العام فى الدنيا والآخرة .

ثم بين - سبحانه - أن اختلاف الناس في الحق موجود قبل بعثة النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : « ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ... »

أي : كما اختلف قومه - أيها الرسول الكريم - في شأن القرآن الكريم فمنهم من وصفه بأنه أساطير الأولين ، فقد اختلف قوم موسى من قبله في شأن التوراة التي أنزلها الله على نبيهم موسى لهدايتهم ، إذ منهم من آمن بها ومنهم من كفر ...

ومادام الأمر كذلك ، فلا تحزن - أيها الرسول الكريم - لاختلاف قومه في شأن القرآن الكريم ، فإن هذا الاختلاف شأن الناس في كل زمان ومكان والمصيبة إذا عمت خفت .

فالجثة الكريمة تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من مشركي قومه .

وجاء الفعل « اختلف » بصيغة المبني للمجهول ، لأن ذكر فاعل الاختلاف لا يتعلق به غرض ، وإنما الذي يتعلق به الغرض هو ما نجم عن هذا الاختلاف من كفر وضلال .

ثم بين - سبحانه - جانباً من مظاهر فضله ورحمته بخلقه فقال : « ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ... »
والمراد بالكلمة التي سبقت : تأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة ، وعدم إهلاكهم بعذاب الاستئصال في الدنيا .

قال الشوكاني : قوله - سبحانه - « ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم . . » أي : لولا أن الله - تعالى - قد حكم بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة لما علم في ذلك من الصلاح ، لقضى بينهم ، أي : بين قومه موسى ، فيما كانوا فيه مختلفين ، فأثب الحق وعذب المبطل ، أو الكلمة : هي أن رحمته سبحانه سبقت غضبه ، فأمهلهم ولم يعاجلهم لذلك .

وقيل إن الكلمة هي أنهم لا يعذبون بعذاب الاستئصال . وهذا من جهة النسبية له - صلى الله عليه وسلم - ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ولأنهم لنفي شك منه مريب والمريب اسم فاعل من أراب . يقال أربته فارتبه إذا فعلت به فوجب لديه الريبة والحيرة .

أي : وإن هؤلاء المختلفين في شأن الكتاب لنفي شك منه ، وهذا قد أوقعهم في الريبة والحيرة والتخبط والاضطراب .

وهذا شأن المرضيين عن الحق ، لا يجدون مجالا لنقده وإنكاره ، فيحذرونهم ويحذرونهم على التشكيك فيه ، وتأويله تأويلا سقيما بدعوى الريبة والقلق .

وبعض المفسرين يرى عودة الضمير في قوله : ولأنهم ، إلى قوم موهبي وفي قوله : منه ، إلى كتابهم التوراة .

وبعضهم يرى عودة الضمير الأول إلى قوم النجس - صلى الله عليه وسلم - والغائي إلى القرآن الكريم .

والذي يبدو لنا أن الرأي الأول أظهر في معنى الآية ، لأن المكلا موسى - عليه السلام وقومه الذين اختلفوا في شأن كتابهم التوراة اختلفوا ، وعود الضمير إلى المتكلم عنه أولى بالقبول .

وهذا لا يمنع أن بعض المكذبين للرسول - صلى الله عليه وسلم - في شك من القرآن ، أوقعهم هذا الشك في الريبة والحيرة .

فتكون الجملة الكريمة من باب التسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما قاله بعض المشركين في شأن القرآن الكريم .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المختلفين في شأن الكتاب ، الشاكين في صدقه ، سوف يحممهم الله - تعالى - مع غيرهم يوم القيامة للجزاء والحساب على أعمالهم فقال - تعالى - : « وإن كلاً لما ليوفيه ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير » .

وقد وردت في هذه الآية الكريمة عدة قراءات متواترة (١) منها : قراءة ابن عاصم وحزمة وحفص عن عاصم بتشديد « إن » و « لما » ، وقد قيل في تخريجها :

إن ألفظ « كلاً » اسم « إن » ، والتنوين فيه عوض عن المضاف إليه ، واللام في « لما » هي الداخلة في خبر « إن » ، وما بعد اللام هو حرف « من » الذي هو من حروف الجر ، و « ما » موصولة أو نكرة موصوفة والمراد بها من يعقل . فيكون تقدير الكلام : « وإن كلاً لما » فقلبت النون فيما الإدغام فاجتمع ثلاث ميّات ، فحذفت واحدة منها للتخفيف ، فصارت « لما » والجار والمجرور خبر « إن » ، واللام في « ليوفيه ربك » جواب قسم مضمّر ، والجملة صلة أو صفة « لما » .

والتقدير : « وإن كلاً من أولئك المختلفين وغيرهم لمن خلق الله الذين هم بحق ربك ليوفيه ربك » سبحانه - جزاء أعمالهم دون أن يفلت منهم أحد ، إنه - سبحانه - لا يخفى عليه شيء منها .

وفي الآية الكريمة توكيدات متنوعة ، حتى لا يشك في نزول العذاب بالظالمين مهما تأجل ، وحتى لا يشك أحد - أيضاً - في أن ما عليه المشركون هو الباطل الذي لا يعرفه الحق ، وأنه الكفر الذي تلقاه الخلف عن السلف .

(١) لمعرفة هذه القراءات راجع حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٤٢٦ وتفسير الألوسي ج ١٢ ص ١٣٣ .

وكان مقتضى حال الدعوة الإسلامية في تلك الفترة التي نزلت فيها هذه السورة — وهي فترة ما بعد حادث الإسراء والمعراج وقبل الهجرة — يستلزم هذه التأكيدات تثبيتها لقلوب المؤمنين، وترويضاً للشرك والمشركين .

قال الإمام الفخر الرازي عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : سمعت بعض الأفاضل قال : إنه — تعالى — لما أخبر عن توفية الأجزية على المستحقين في هذه الآية ، ذكر فيها سبعة أنواع من التأكيدات :

أولاً : كلمة « إن » ، وهي للتأكيد ، وثانيها كلمة « كل » ، وهي أيضاً للتأكيد ، وثالثها : اللام الداخلة على خبر « إن » ، وهي تفيد التأكيد — أيضاً — ، ورابعها : حرف « ما » ، إذا جعلناه على قول الفراء موصولاً ، وخامسها : القسم المضمر فإن تقدير الكلام : « وإن جميعهم والله ليوفينهم » ؛ وسادسها : اللام الثانية الداخلة على جواب القسم ، وسابعها : النون المؤكدة في قوله « ليوفينهم » .

فجميع هذه المؤكدات السبعة تدل على أن أمر القيامة والحساب والجزاء حق (١)

ثم أمر الله — تعالى — رسوله — صلى الله عليه وسلم — وأتباعه بالتزام الصراط المستقيم فقال — سبحانه — : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير » .

والفاء للتفريع على ما تقدم من الأوامر والنواهي .

والاستقامة — كما يقول القرطبي — هي الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال (٢)

والطغيان : مجاوزة الحد . ومنه طغا الماء . أي ارتفع وتجاوز الحدود المناسبة .

(١) تفسير الفخر الرازي ١٨ ص ٧٠

(٢) تفسير القرطبي ٩ ص ١٣٦ .

والمعنى: لقد علمت - أيها الرسول الكريم - حال السعداء وحال الأشقياء، وعرفت أن كل مكلف سيوفى جزاء أعماله

وما دام الأمر كذلك فالزم أنت ومن معك من المؤمنين طريق الاستقامة على الحق ، ودأبوا على ذلك كما أمركم الله ، بدون إفراط أو تفريط ، واحذروا أن تتجاوزوا حدود الاعتدال في كل أفعالكم وأعمالكم .

وجه - سبحانه - الأمر بالاستقامة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - تنويها بشأنه ، ولينبيه عليه قوله - « كما أمرت » ، فيشير بذلك إلى أنه - عليه الصلاة والسلام - هو وحده المتلقى للأوامر الشرعية من الله - تعالى - .

وغد جمع قوله - تعالى - « فاستقم كما أمرت » أصول الإصلاح الديني وفروعه ، كما جمع قوله - تعالى - « ولا تطغوا » أصول النهي عن المفاصد وفروعه ، فكانت الآية الكريمة بذلك جامعة لإقامة المصالح ولدفع المفاصد .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : يأمر الله - تعالى - رسوله وعباده المؤمنين في هذه الآية بالثبات والدوام على الاستقامة ، لأن ذلك من العون على النصر على الأعداء ، وينهاهم عن الطغيان وهو البغى ، لأنه مصرعته حتى ولو كان على مشرك .

وقال الألوسي : والاستقامة كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل وسائر الأخلاق

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن أنه قال ، لما نزلت هذه الآية قال - صلى الله عليه وسلم - « شمروا شمروا ، وما روى بعد ضاحكا » .

وعن ابن عباس قال : ما نزلت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - آية ألحد من هذه الآية ولا أشق ^(١) .

وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت يا رسول الله ،

قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك . قال : « قل آمنتم بالله ثم استقم » (١) .

وجملة « إنه بما تعملون بصير » تحليل للأمر بالإستقامة والنهى عن الطغيان .
أى : الزموا المنهج القويم ، وابتعدوا عن الطغيان ، لأنه - سبحانه -
مطلع على أعمالكم اطلاع المبصر ، العليم بظواهرها وبواطنها ، وسيجازيكم
يوم القيامة عليها بما تستحقون من ثواب أو عقاب .

ثم نهى - سبحانه - بعد ذلك عن الميل إلى الظالمين فقال : « ولا تركنوا
إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » .
والركون إلى الشيء : الميل إليه . يقال ركن فلان إلى فلان ، إذا مال
إليه بقلب ، واعتمد عليه فى قضاء مصالحه .

والمراد بالذين ظلموا هنا : ما يتناول المشركين وغيرهم من الظالمين الذين
يعتدون على حقوق الغير ، ويستحلون من محارم الله ...

والمعنى : واحذروا - أيها المؤمنون - أن تميلوا إلى الظالمين ؛ أو تسكنوا
إليهم ، لأن ذلك يؤدى إلى تقوية جانبهم . وإضعاف جانب الحق والعدل ..
قال بعض العلماء : ويستثنى من ذلك للضرورة صحة الظالم على التقية مع
حرمة الميل القلبى إليه .

وقوله « فتمسكم النار » أى فتصيبكم النار بسبب ميلكم إليهم ، والاعتماد
عليهم ، والرضا بأفعالهم .

وقوله « وما لكم من دون الله من أولياء » فى موضع الحال من
ضمير « تمسكم » .

أى : والحال أنه ليس لكم من غير الله من نصراء ينصرونكم من العذاب

النازل بكم ، بسبب ركونكم إلى الذين ظلموا ومجالستهم وزيارتهم
ومدامتهم ...

وثم في قوله : قم لا تنصرون ، للتراخي الرتبي . أى ثم لا تجدون بعد
ذلك من ينصركم بأى حال من الأحوال ، لأن الظالمين ما لهم من أنصار .

قال بعض العلماء : الآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم ، والتهديد عليه ،
لأن هذا الوعيد الشديد إذا كان فيمن يركن إلى الذين ظلموا فكيف يكون
حال من ينغمس في حماته ١١٤

ثم قال : وقد وسع العلماء في ذلك وشددوا ، والحق أن الحالات تختلف ،
والأعمال بالنيات . والتفصيل أولى .

فإن كانت المخالطة لدفع منكر ، أو للاستعانة على إحقاق الحق ، أو
جلب الخير ...

فلا حرج في ذلك . وإن كانت لإيئاسهم وإقرارهم على ظلمهم فلا . (١)
ثم أرشد - سبحانه - عباده المؤمنين إلى ما يعينهم على الاستقامة وعلى
هدم الركون إلى الظالمين ، فقال : وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من
الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين ...

والمراد بإقامتها . الإتيان بها في أوقاتها كاملة الأركان والخشوع والإخلاص
فه رب العالمين .

والمراد بالصلاة هنا : الصلاة المفروضة .

قال القرطبي : لم يختلف أحد من أهل التأويل في أن الصلاة في هذه الآية ،
المراد بها الصلوات المفروضة . وخصها بالذكر لأنها ثافية أركان الإسلام ،
ولبسها يفزع في النوائب ، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا

نحوه أمر فروع إلى الصلاة،^(١).

وطرفي النهار: أي أول النهار وآخره، لأن طرف الشيء منتهاه من أوله أو من آخره.

والنهار: يتناول ما بين مطلع الفجر إلى غروب الشمس. سمي بذلك لأن الضياء ينهر فيه أي يبرز النهر.

والصلاة التي تكون في هذين الوقتين، تشمل صلاة الغداة وهي صلاة الصبح، وصلاة العشي وهي صلاة الظهر والعصر، لأن لفظ العشي يكون من الزوال إلى الغروب.

وقيل الصلاة التي تكون في هذين الوقتين هي صلاة الصبح والمغرب. وقوله «وزلفا من الليل» مطوف على طرفي النهار.

والزلف جمع زلفة - كغرف وغرفة - والمراد بها الساعات القريبة من آخر النهار، إذ الإزلاف معناه القرب ومنه قوله - تعالى - «وأزلفت الجنة للمتقين...»، أي: قريت منهم. وتقول أزلفتني فلان منه: أي قربني...

فعني «وزلفا من الليل» طائفة من أوله. وصلاة الزلف تطلق على صلاتي المغرب والعشاء قال ابن كثير ماملخصه: وقوله «وزلفا من الليل» يعني صلاة المغرب والعشاء. قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «هما زلفتا الليل: المغرب والعشاء».

ويحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها، وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نسخ في حق الأمة، وثبت وجوبه عليه، ثم نسخ عنه أيضا في قول،^(٢).

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ١٠٩.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٨٤.

وجملة ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، مسوقة مساق التعليل للأمر بإقامة الصلاة ، وأكدت بحرف ، إن ، الاهتمام وتحقيق الخير ، والحسنات صفة لموصوف محذوف ، وكذلك السيئات .

والمعنى : إن الأعمال الحسنة - كالصلاة والزكاة والصيام والحج ، والاستغفار . . . - يذهبن الأعمال السيئات ، أى يذهبن المؤاخذة عليها ، ويذهبن الاتجاه إليها بركة المؤاخذة على الأعمال الحسنة .

والمراد بالسيئات هنا صفات الذنوب ، لقوله - تعالى - : « إن نجتنبوا كبائر ما نهون عند فكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما » (١) ولقوله - تعالى - : « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللعوم إن ربك واسع المغفرة . . . » (٢) ، ولأن كبائر الذنوب لا تنكفها إلا التوبة الصادقة .

وقوله ، ذلك ذكرى للذاكرين ، أى : ذلك الذى أمرناك به من وجوب إقامة الصلاة ، ومن الاستقامة على أمر الله . . . فيه التذكرة النافعة ، لمن كان شأنه التذكر والاعتبار ، لا الإعراض والعناد .

وهذه الآية الكريمة من الآيات التى قال عنها بعض المفسرين بأنها مدنية ، وقد ذكرنا فى التمهيد بين يدى السورة ، أن سورة هود ترجع أنها كلها مكية ، وليس فيها آيات مدنية .

وما يؤيد أن هذه الآية مكية أنها مسوقة مع ما سبقها من آيات لتسليية النبي - صلى الله عليه وسلم - وإرشاده واتباعه إلى ما يمينهم على الاستقامة ، وعدم الركون إلى الظالمين .

(١) سورة النساء الآية ٣١ .

(٢) سورة النجم الآية ٣٢ .

ولأن بعض الروايات التي وردت في شأنها ، لم تذكر أنها نزلت في المدينة ، بل ذكرت أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - تلاها على السائل ، ومن هذه الروايات ما رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن جرير - وهذا لفظه - عن ابن مسعود قال : جاء رجل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله إنني وجدت امرأة في بيتان ، فتملعت بها كل شيء ، غير أني لم أجامعها ، فافعل بي ما شئت . فلم يقل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شيئاً ، فذهب الرجل ، فقال عمر : لقد ستر الله عليه لوستر على نفسه . فأتبعه الرسول - صلى الله عليه وسلم - بصره ثم قال : ردوه على فردوه عليه فقرأ عليه : وأقم الصلاة طرقي النهار وزلفا من الليل ... الآية ، فقال معاذ - وفي رواية عمر - يا رسول الله ، أله وحده أم للناس كافة ؟ فقال : بل للناس كافة ، (١) .

والروايات التي ورد فيها فأنزل عليه هذه الآية ، في الإمكان أن تؤيد بأن المأد أنزل عليه شمول عموم الحسنات والسيئات لقضية السائل ، ولجميع ما يماثلها من إصابتها الذنوب سوى الكبائر .

هذا ، ثم ختم - سبحانه - هذه التوجيهات الحكيم بقوله . . . واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . . .

أى : واصبر أيها الرسول الكريم أنت ومن معك من المؤمنين على مشاق التكاليف التي كلفكم الله - تعالى - بها ، فإنه - سبحانه - لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، بل موفى الصابرين أجرهم بغير حساب .

قال الآلوسى : ومن البلاغة أن القرآن أن الأوامر بأفعال الخير أفردت للنبي - صلى الله عليه وسلم - وإن كانت عامة في المعنى ، والمتأخرى جمعت للأمة ، للدلالة على عظم منزلة الرسول - صلى الله عليه وسلم - عند ربه (٢) .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٨٦ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ١٤٣ .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآيات الدالة على سنن الله - تعالى - في خلقه ، وعلى الحكم التي من أجلها ساق الله - تعالى - تلك القصص في كتابه فقال - تعالى - :

« فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَهُودٍ عَنْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلَفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِلَّهِ خَلْقُهُمْ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبُّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) وَكَلَّا نَقْصُصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَنْبِئُ بِهَ فُؤَادَكَ ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ إِنْ أِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَاتَّظَرُوا إِنَّا مُنْتَظَرُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ غِيبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ، فَاهْبِذْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣) » .

وقوله - تعالى - « فَلَوْ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَهُودٍ عَنْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ . . . » ، إرشاد إلى أن الأمم إذا خلت من الأمرين بالمعروف والناهي عن المنكر ، حلت بها المصائب والنكبات . .

ولولا : حرف تخصيص بمعنى هلا . والمقصود بالتحضيض هنا تحذير المعاصرين للنبي - صلى الله عليه وسلم - ومن سيأتي بعدهم من الوقوع فيما وقع فيه أهل القرون الماضية من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حتى لا يصيب اللاحقين ما أصاب السابقين .

والقرون : جمع قرن . والمراد به الأمة من الناس الذين يجمعهم زمان واحد ، والراجع أن القرن مائة عام .

و أولوا بقية ، أى : أصحاب مناقب حميدة ، وخصال كريمة ، وعقول راجحة . . .

وأصل البقية : ما يصطفيه الإنسان لنفسه من أشياء نفيسة يدخرها لينتفع بها ، ومنه قولهم : فلان من بقية القوم . أى : من خيارهم وأهل الفضل فيهم . قال الشاعر :

إن تدنّبوا ثم تأتيني بقيتكم فما على بدفب منكم فوت

وفي الأمثال : فى الزوايا خبايا ، وفى الرجال بقايا

والفساد فى الأرض : يشمل ما يكون فيها من المعاصى واختلال الأحوال وارتكاب المنكرات والبعد عن الصراط المستقيم .

والمعنى : فهلا وجد من أولئك الأقوام الذين كانوا من قبلكم ، رجال أصحاب خصال كريمة ، وعقول سليمة ، تجعلهم هذه الخصال وتلك العقول ينهون أنفسهم وغيرهم عن الإفساد فى الأرض ، وعن انتهاك الحرمات ؟

كلا إنهم لم يكن فيهم هؤلاء الرجال الذين ينهون عن الفساد فى الأرض ، إلا عددا قليلا منهم أنجيئناهم بسبب إيمانهم ونهيمهم عن الفساد فى الأرض .

وفى هذا من التوبيخ لأهل مكة واسكل من تقاعس عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ما فيه ، لأن الله - تعالى - بين أن عذاب الاستئصال الذى حل بالظالمين السابقين ، كان من أسبابه عدم نهيمهم عن الفساد فى الأرض .

قال الشوكانى : والاستثناء فى قوله « إلا قليلا » .. منقطع . أى : لكن قليلا من أنجيئنا منهم كانوا ينهون عن الفساد فى الأرض . وقيل : هو متصل ، لأن فى حرف التحضيض معنى النفي ، فكأنه قال : ما كان فى القرون أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض ، إلا قليلا من أنجيئنا منهم . ومن فى قوله

« من أنجينا منهم ، بيانيه ، لأنه لم ينج إلا الناهون ، » (١) .

وقال ابن كثير : ولهذا أمر الله - تعالى - هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وأولئك هم المفلحون . وفي الحديث : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه ، أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده ، ولهذا قال : فلو لا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض . . . » (٢) .

وقوله : « وانسبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه . . . » ، إشارة إلى أن هؤلاء القاعدين عن النهي عن الإفساد في الأرض ، قد استمروا على فجورهم وفسقهم دون أن يلتفتوا إلى خصال الخير ، وإلى سبيل الصلاح .
وأترفوا من الترف ومعناه التقلب في نعم الله - تعالى - مع ترك شكره - سبحانه - عليها .

والمترف : هو الشخص الذي أبطرته النعمة ، فأنغمس في الشهوات والمعاصي ، وأعرض عن الأعمال الصالحة . .

والجملة السكرية : طوفة على كلام مقدر يقتضيه الكلام ، والمعنى : أن هؤلاء الذين لم يكن فيهم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا من استثنى ، قد استمروا في طغيانهم ، واتبعوا ما أنعموا فيه من الثروة والعيش الهنيء والشهوات العاجلة ، فكفروا بالنعمة ، واستكبروا وفسقوا عن أمر ربهم ، وكانوا قوما مجرمين ، أي مصرين على ارتكاب الجرائم والمنكرات ، فحق عليهم العقاب الذي يستحقونه بسبب هذه السيئات .

ثم بين - سبحانه - أن رحمته بعباده تقتضى عدم ظلمه لهم فقال : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

(١) تفسير فتح القدير للشوكاني ج ٢ ص ٥٢٤

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٩٠

والمراد بالظلم هنا ما يشمل الإشراف باقته - تعالى - وغيره من الوقوع في المعاصي والمنكرات .

والباء في « بظلم » للدلالة ، و تفويين فيه الإشعار بأن إهلاك المصلحين ظلم عظيم يتنزه الله - تعالى - عنه على أبلغ وجه ، وإن كانت أفعاله - عز وجل - لا ظلم فيها أيا كانت هذه الأفعال . والجوار المجرور حال من ربك .

والمعنى : وما كان من شأن ربك - أي - الرسول الكريم - أن يهلك أهل قرية من القرى لإهلاكها متلبسا بظلم منه لها ، والحال أن أهلها قوم مصلحون ، لأن ذلك الإهلاك مع تلك الحال يتنافى مع ما كتبه على نفسه من الرحمة والعدل . قال - تعالى - « كتب ربكم على نفسه الرحمة ... » ، وقال - تعالى - « ولا يظلم ربك أحدا » .

وقال - تعالى - « وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون » .

ومعهم من فسر : ظلم هنا بالشرك ، وجعل الباء للسببية ، فيكون المعنى : ليس من شأن ربك أن يهلك أهل قرية من القرى بسبب كفرهم وحده ، مع صلاحهم في تعاطي الحقوق فيما بينهم ، وإنما يهلكهم عندما يضلون إلى الكفر الإفساد في الأرض كما أهلك قوم شعيب لشركهم وإنقاذهم المسكين والميزان .

وقد ساق ابن جرير - رحمه الله - القولين دون أن يرجح بينهما فقال : القول في تأويل قوله - تعالى - « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

يقول - تعالى - ذكره : وما كان ربك يا محمد ليهلك القرى التي أهلكتها والتي قص عليك نباها ظلما وأهلها مصلحون في أعمالهم غير مسيئين ، فيكون إهلاكهم إياهم مع إصلاحيهم في أعمالهم وطاعتهم ربهم ظلما ، ولأنه أهلكتهم بكفر أهلها باقته ، وتماديهم في غيهم

وقد قيل معنى ذلك : لم يكن ليهلكهم بشركهم بالله : وذلك قوله بظلم بمعنى

بشرك ، وأهلها مصلحون فيما بينهم لا يتظالمون ، ولكنهم يتعاطون الحق بينهم وإن كانوا مشركين ، وإنما يهلكهم إذا تظالموا ، (١) .

والذي نراه أن القول الأول أقرب إلى الصواب ، لأن حمل الظلم هنا على الشرك تخصيص بدون غرض ، حيث لم يرد عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حديث صحيح يخصه بذلك ، فوجب حمل الظلم على معناه الحقيقي الذي يتناول الشرك وغيره .

ثم أخبر - سبحانه - بأن قدرته لا يعجزها شيء . فقال : ولو شاء ربك لجلل الناس أمة واحدة ، .

والأمة : القوم المجمعون على أمر واحد ؛ يقتدى فيه بعضهم ببعض ، وهذا اللفظ مأخوذ من « أم » بمعنى قصد ، لأن كل واحد من أفراد القوم يؤم المجموع ويقصده في مختلف شؤنه .

ولو شرطية امتناعية ، ومفعول فعل المشيئة محذوف والتقدير :

ولو شاء ربك - أيها الرسول الكريم الحريص على إيمان قومه - أن يجعل الناس جميعاً أمة واحدة مجمعة على الدين الحق لجمعهم ، ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، ليميز الخبيث من الطيب وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ... »

وقوله - سبحانه - « ولو شاء ربك لجمعهم على الهدى ... »

وقوله « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك » تأكيد لما اقتضته سنته من اختلاف الناس .

أي : ولا يزالون مابقيت الدنيا مختلفين في شأن الدين الحق ، فمنهم من دخل فيه وآمن به ، ومنهم من أعرض عنه ، إلا الذين رحمهم ربك منهم هدايتهم إلى الصراط المستقيم من أول الأمر ، فإنهم لم يختلفوا ، بل اتفقوا على الإيمان بالدين الحق فدعاهم الله - تعالى - من الاختلاف المذموم .

قال الإمام ابن كثير : وقوله « إلامن رحم ربك ، أى : إلامن المرحومين من أتباع الرسل ، الذين تمسكوا بما أمروا به من الذى أخبرتهم به رسل الله إليهم ، ولم يزل ذلك دأبهم ، حتى كان النبي - صلى الله عليه وسلم - الأسمى خام الرسل والأنبياء ، فاتبعوه وصدقوه ونصروه ، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة ؛ لأنهم الفرقة الناجية ، كما جاء فى الحديث المروى فى المسانيد والسنن ، من طرق يشهد بعضها بعضها : إن اليهود افتترقت على إحدى وسبعين فرقة ، وإن النصارى افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا فرقة واحدة . قالوا : ومن هم يا رسول الله ، قال : ما أنا عليه وأصحابي ، (١) .

واسم الإشارة فى قوله « ولذلك خلقهم » ، يعود على المصدر المفهوم من مختلفين قال الألوسى : فكأنه قيل : وللإختلاف خلق الناس ، على معنى لفظة الاختلاف من كون فريق فى الجنة وفريق فى السعير خلقهم .

واللام لام العاقبة والضرورة ، لأن حكمة خلقهم ليس بهذا ، لقوله - سبحانه - « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ولأنهم لو خلقهم له - أى للاختلاف - لم يعذبهم على ارتكاب الباطل » (٢) .

ومنها من جعل الإشارة إلى الرحمة لأنها أقرب مذكور ، فيكون التقدير : إلامن رحم ربك ولرحمته - سبحانه - خلق الناس .

وصح قد كبير اسم الإشارة مع عودته إلى الرحمة لكون قانيتها غير حقيقى . ومنها من جعل الإشارة إلى مجموع الاختلاف والرحمة ، لأنه لا مانع من الإشارة بها إلى شيتين كما فى قوله « عوان بين ذلك ، أى بين الفاضل والبكر .

فيكون المعنى : وللإختلاف والرحمة خلقهم ، أى أنه - سبحانه - خلق أهل الرحمة للرحمة وأهل الاختلاف للاختلاف .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٩١ .

(٢) تفسير الألوسى ج ١٢ ص ١٤٧ .

وقد رجح الإمام القرطبي هذا الوجه فقال : قوله ، ولذلك خلقهم ، قال الحسن ومقاتل وعطاء :

الإشارة إلى الاختلاف ، أى : وللإختلاف خلقهم . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك :

الإشارة إلى الرحمة : أى : ولرحمته خلقهم .

وقيل : الإشارة إلى الاختلاف والرحمة ، وقد يشار بذلك إلى شيئين متضادين ، كما فى قوله - تعالى - ، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ، ...

وهذا أحسن الأقوال - إن شاء الله - لأنه يعم . أى : ولما ذكر خلقهم ..
أى : خلقهم ليكون فريق فى الجنة وفريق فى السعير . أى خلق أهل الاختلاف للاختلاف وأهل الرحمة للرحمة (١)

والمراد بكلمة ربك فى قوله - سبحانه - ، وتمت كربة ربك لأملأن جهم من الجنة والناس أجمعين ، قضاؤه النافذ ، وإرادته التى لا تتخلف ، وحكمه الأزل .

أى : وتمت كربة ربك ، وفقد قضاؤه ، وثبت حكمه الذى أكدته وأقسم عليه بقوله : لأملأن جهم من عصاة الجن ، ومن عصاة الإنس أجمعين ، لأنه من المعروف أن الوعيد إنما هو للعصاة والمذنبين وليس للمؤمنين الصادقين .

قال الآلومى : وفى معنى ذلك ما قيل من أن المراد بالجنة والناس أتباع إبليس اقوله - تعالى - فى سورة الأعراف وفى سورة ص ، لأملأن جهم منك وعن تبعك منهم أجمعين ، فاللازم دخول جميع تابعيه فى جهم ، والقرآن يفسر بعضه بعضا ... (٢)

ثم بين - سبحانه - أهم الفوائد التى تعود على الرسول - صلى الله عليه وسلم -

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ١١٥ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ١٢٨ .

من وراء إخباره بأحوال الأنبياء السابقين مع أقوامهم فقال : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك . . . »

والتقوين في قوله « وكلا ، للعوض عن المضاف إليه . والأنباء جمع نبأ وهو الخبر الهام :

أى : وكل نبأ من أنباء الرسل الكرام السابقين بقصه عليك - أيها الرسول الكريم - ونخبرك عنه .

فالمقصود به تثبيت قلبك ، وتقوية يقينك ، ونساية نفسك ونفوس أصحابك عما لحقكم من أذى في سبيل تبليغ دعوة الحق إلى الناس .

وقوله - سبحانه - « وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » بيان لما اشتملت هذه السورة الكريمة من أخبار صادقة ، وعظات بليغة .

أى وجاءك - أيها الرسول الكريم - في هذه السورة الكريمة وغيرها من سور القرآن الكريم : الحق الثابت المطابق للواقع ، والعظات الحكيمة ، والذكرى النافعة للمؤمنين بما جئت به . . .

وأما الذين في قلوبهم مرض فقد زادتهم هذه السورة وأمرها رجسا إلى رجسهم ، وما نأوا وهم كافرون .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالسير في طريق الحق بدون مبالاة بتهديد أعدائه فقال : « وقل الذين لا يؤمنون أعمالوا على مكانتكم إنما عاملون راتظنوا إنا منتظرون ، والأمر في هذه الآية الكريمة للتهديد .

ومكانتكم : مصدرومكن - بزنة كرم - مكانة ، إذا تمكن من الأمر أبلغ التمكن .

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين الذين يضعون العقبات في طريق دعوتك ، قل لهم أعمالوا ما نستطيعون عمله من الكيد لى ولدعوتى ، فإنى وأصحابى مستمرين على السير في طريق الحق الذى هدانا الله

إليه ، بدون التفات إلى كفركم وقل لهم - أيضا - : انتظروا ما يأتى به الله من عقاب ، فإننا منتظرون معكم ذلك .

ثم ختم - سبحانه - السورة السكرية بهذه الآية الجامعة فقال : والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون .

أى : والله - تعالى - وحده علم جميع ما غاب عن الحواس فى السموات والأرض ، وإليه وحده يرجع الأمر كله من إحياء وإماتة ، وهداية وضلال ، وصحة ومريض ، ونصر وهزيمة .

وما دام الأمر كذلك فاعبده وتوكل عليه ، أى : فأخلص له العبادة ، واجعل توكلك عليه وحده .

وما ربك بغافل عما تعملون ، بل هو مطلع وبصير بأعمال عباده جميعا ، لا يعزب عنه مثقال خيرة منها ، وسيجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

أما بعد : فهذا تفسير لسورة هود - عليه السلام - أسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ونافعا لعباده . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

المدينة المنورة - صباح الخميس ٥ من جمادى الثانية سنة ١٤٠١ هـ

الموافق ٩ من أبريل سنة ١٩٨١ م

محمد السيد طنطاوى

الفهرس

فهرس تفسير سورة هود - عليه السلام -

رقم الآية	الآية المفسرة	الصفحة
	المقدمة والتمهيد	٣
١	الر . كتاب أحكمت آياته	١٥
٢	ألا تعبدوا إلا الله	١٧
٣	وأن استغفروا ربكم	١٨
٤	إلى الله مرجعكم	٢٠
٥	ألا إنهم يثنون صدورهم	٢٠
٦	وما من دابة في الأرض	٢٢
٧	وهو الذي خلق السموات والأرض	٢٥
٨	ولئن أخرجنا عنهم العذاب	٢٨
٩	ولئن أذقنا الإنسان	٢٢
١٠	ولئن أذقناه نعماء	٢٣
١١	إلا الذين صبروا	٣٤
١٢	فلعلك تارك بعض	٣٤
١٣	أم يقولون افتراه	٣٧
١٤	فإن لم يستجيبوا لكم	٣٩
١٥	من كان يريد الحياة الدنيا	٤١
١٦	أولئك الذين ليس لهم	٤١
١٧	أفئ كيان على بينة من ربه	٤٤
١٨	ومن أظلم ممن افتري	٤٩
١٩	الذين يصدون عن سبيل الله	٥١
٢٠	أولئك لم يكفوا معجزين	٥٢
٢١	أولئك الذين خسروا أنفسهم	٥٣
٢٢	لا جرم أنهم في الآخرة	٥٣

الصفحة	الآية المفسرة	رقم الآية
٥٤	إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات	٢٢
٥٥	مثل الفريقين كالآسمى	٢٤
٥٧	واقعد أرسلنا نوحا	٢٥
٥٨	ألا تعبدوا إلا الله	٢٦
٥٩	فقال الملأ الذين كفروا	٢٧
٦١	قال يا قوم أرأيتم	٢٨
٦٤	ويا قوم لا أسألكم	٢٩
٦٥	ويا قوم من ينصرني من الله	٣٠
٦٦	ولا أقول لكم عندي خزائن الله	٣١
٦٨	قالوا يا نوح قد جادلتنا	٣٢
٦٩	قال إنما يأتيكم به الله	٣٣
٦٩	ولا ينفعكم نصحي إن أردت	٣٤
٧٠	أم يقولون افتراه	٣٥
٧٢	وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن	٣٦
٧٢	واصنع الفلك بأعيننا	٣٧
٧٤	ويصنع الفلك	٣٨
٧٥	فسوف تعلمون من يأتيه	٣٩
٧٥	حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور	٤٠
٧٩	وقال اركبوا فيها	٤١
٨١	وهي تجري بهم في موج كالجبال	٤٢
٨١	قال سأؤي إلى جبل	٤٣
٨٢	وقيل يا أرض ابلعي ماءك	٤٤
٨٦	وفادى نوح ربه	٤٥
٨٧	قال يا نوح إنه ليس	٤٦
٨٩	قال رب إنني أعوذ بك	٤٧
٩٠	قيل يا نوح اصبط	٤٨

الصفحة	الآية المفسرة	رقم الآية
٩١	تلك من أنباء الغيب	٤٩
٩٦	وللى عاد أخاهم هودا	٥٠
٩٨	يا قوم لا أسألكم	٥١
٩٩	ويا قوم استغفروا ربكم	٥٢
١٠٠	قالوا يا هود ما جئتنا ببينة	٥٣
١٠١	إن نقول إلا اعتراك	٥٤
١٠٢	من دونه فلكيدونى جميعا	٥٥
١٠٣	لأنو توكلت على الله	٥٦
١٠٤	فإن تولوا فقد أبلغتكم	٥٧
١٠٥	ولما جاء أمرنا نجينا هودا	٥٨
١٠٦	وتلك عاد جحدوا	٥٩
١٠٧	وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة	٦٠
١٠٩	وللى ثمود أخاهم صالحا	٦١
١١٢	قالوا يا صالح قد كنت	٦٢
١١٢	قال يا قوم أرأيتم إن كنت	٦٣
١١٣	ويا قوم هذه ناقة الله	٦٤
١١٤	ففقروها فقال تمتعوا	٦٥
١١٥	فلما جاء أمرنا نجينا صالحا	٦٦
١١٦	وأخذ الذين ظلموا	٦٧
١١٦	كان لم يغنوا فيها	٦٨
١١٨	واقدم جاءت رسلنا	٦٩
١٢٠	فلما رأى أبديهم	٧٠
١٢١	وامرأته قائمة فضحك	٧١
١٢٢	قالت يا ويلتى أألد	٨٢
١٢٢	قالوا أتعجبين من أمر الله	٧٣
١٢٤	فلما ذهب عن إبراهيم	٧٤

الصفحة	الآية المفسرة	رقم الآية
١٢٥	إن إبراهيم الحليم	٧٥
١٢٥	بالإبراهيم أعرض عن هذا	٧٦
١٢٧	ولما جاءت رسلنا لوطا	٧٧
١٣٠	وجاءه قومه يهرعون إليه	٧٨
١٣٢	قالوا لقد علمت ما لنا	٧٩
١٣٣	قال لو أن لى بكم قوة	٨٠
١٣٤	قالوا يا لوط إنا نرسل ربك	٨١
١٣٦	فلما جاء أمرنا	٨٢
١٣٧	مسررة عند ربك	٨٣
١٣٩	وإلى مدين أخاهم شعيبا	٨٤
١٤٢	ويا قوم أوفوا المكايال	٨٥
١٤٣	بقية الله خير لكم إن كنتم	٨٦
١٤٤	قالوا يا شعيب أصلاتك	٨٧
١٤٦	قال يا قوم أرايتم	٨٨
١٤٧	ويا قوم لا يجرمكم	٨٩
١٤٩	واستغفروا ربكم	٩٠
١٤٩	قالوا يا شعيب ما نقفه	٩١
١٥٠	قال يا قوم أرهطى	٩٢
١٥١	ويا قوم اعملوا على مكانتكم	٩٣
١٥٢	ولما جاء أمرنا نجينا	٩٤
١٥٢	كان لم يغنوا فيها	٩٥
١٥٤	ولقد أرسلنا موسى	٩٦
١٥٥	إلى فرعون وملاه	٩٧
١٥٥	يقدم قومه يوم القيامة	٩٨
١٥٦	وأنبعروا في هذه اهنة	٩٩
١٥٨	ذلك من أنباء القرى	١٠٠

الصفحة	الآية المفسرة	رقم الآية
١٥٩	وما ظلمناهم ولكن ظلموا	١٠١
١٦١	وكذلك أخذ ربك	١٠٢
١٦٢	إن في ذلك لآية	١٠٣
١٦٤	وما تؤخره إلا لأجل	١٠٤
١٦٤	يوم يأت لاتكلم نفس	١٠٥
١٦٥	وأما الذين شقوا	١٠٦
١٦٦	خالدين فيها مادامت	١٠٧
١٧٠	وأما الذين سعدوا	١٠٨
١٧١	فلاتك في مرة	١٠٩
١٧٤	ولقد آتينا موسى	١١٠
١٧٦	وإن كلالنا لبوفينهم	١١١
١٧٧	فاستقم كما أمرت	١١٢
١٧٩	ولا تركنوا إلى الذين	١١٣
١٨٠	وأقم الصلاة	١١٤
١٨٣	واصبر فإن الله	١١٥
١٨٤	فلولا كان من القرون	١١٦
١٨٧	وما كان ربك	١١٧
١٨٨	ولو شاء ربك	١١٨
١٨٨	إلا من رحم ربك	١١٩
١٩١	وكلا نقص عليك	١٢٠
١٩١	وقل للذين لا يؤمنون	١٢١
١٩٢	وانتظروا إنا منتظرون	١٢٢
١٩٢	وفه غيب السموات والأرض	١٢٣

رقم الايداع ٢٩٠٢ / ١٩٨٤